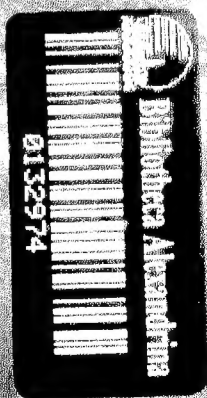


المستوطنات اليهودية

على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم



الدار المصرية اللبنانية



المستوطنات اليهودية
على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

الناشر : الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الحالى ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقى : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ١٨٢٦ / ١٩٩٢

الترقيم الدولى : 5 - 74 - 5083 - 977

طبع : المطبعة الفنية

العنوان : ٢٢ ش الشقفاتية - متفرع من الساحه - عابدين

تليفون : ٣٩١١٨٦٢

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

الطبعة الثانية : ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م

تصميم الغلاف : محمد قطب

المستوطنات اليهودية

على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

دكتور
أحمد علي المجروب

السنادر
للدراسات والبحوث

مقدمة

لا أشك في أن كثيرين ممن قرءوا عنوان هذا الكتاب قد اعترضهم الدهشة وتساءلوا : هل كانت توجد مستوطنات يهودية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . وإذا كانت قد وجدت فأين كان مكانها ؟ ومتى أقيمت ؟ وكيف استؤصلت ؟ ولماذا استؤصلت ؟ والواقع أن الأمر فيما يتعلق بموضوع المستوطنات اليهودية في الحجاز يشوبه الكثير من الإبهام وعدم الوضوح ، باعتباره جزءاً من تاريخنا العرى والإسلامي ؛ ولذلك فأنا لا أستنكر أن يتساءل الناس على هذا النحو ؛ لأننى كنت — إلى عهد قريب — مثلهم لا أعرف إلا القليل عن هذا الموضوع ، على الرغم من كثرة قراءاتى في كتب التاريخ والسيرة والتفسير ، إلى أن شرعت فى إعداد دراسة أرد بها على مزاعم بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين بخصوص زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية النضيرية ، التى كانت يهودية قبل أن يتزوجها ، مما فرض على أن أبحث فى غزوة خيبر وماحدث فيها ؛ نظراً لأن السيدة صفية كانت قد وقعت فى السبى فى هذه الغزوة . فإذا لم أجد نفسى مضطراً إلى العودة إلى ما قبل ذلك ، إلى غزوة بنى النضير ، قبيلة السيدة صفية التى كان أبوها زعيماً لها وقائداً . وقادتى غزوة بنى النضير إلى الوراء لأدرس غزوة بنى قينقاع اليهود أيضاً ، ثم إلى الأمام لأدرس غزوة بنى قريظة ، ومعها غزوة الأحزاب .

وهكذا وجدت نفسى غارقا فى الموضوع الأوسع ، موضوع الوجود اليهودى فى الحجاز ، بل فى الجزيرة العربية كلها . ومضيت أبحث فى الكيفية التى دخلوا بها ، ومتى ؟ وكم كان عددهم ؟ وأين استوطنوا ؟ وماذا فعلوا بأصحاب البلاد ؟ ليقودنى البحث إلى حقائق غريبة وعجيبة فى آن واحد ، منها أن اليهود لم يكونوا فى المدينة وخير فقط ، بل كانوا فى مناطق أخرى كثيرة تربو على العشر ؛ ذلك لأنهم — كما هو شأنهم دائما — ما إن اجتازوا حدود الجزيرة العربية مع فلسطين حتى انتشروا فى الحجاز بطريقة سرطانية ، ينشئون المستوطنات فى المواقع الاستراتيجية ، وذات الأهمية الاقتصادية فى آن واحد ، ويقىمون الحصون القوية ويقتلون السكان العرب أو يطردهم أو يسخروهم لأداء الأعمال الشاقة نظير أجور تافهة .

ولم أجد فى كتب التاريخ ذكراً للطريقة التى دخل بها اليهود إلى الحجاز ، وهل دخلوه عنوة وبواسطة الحرب ، أو دخلوه متسللين مهاجرين بعد أن أعمل الرومان فيهم سيوفهم فقتلوا منهم مئات الألوف ، فاستدروا عطف العرب بالدموع والتوسلات ، كما فعلوا فى فلسطين بعد ذلك بألفى عام ؟.

أما الذى وجدته بشأن تصرفاتهم بعد أن استقروا واطمأنوا ، فيشبه إلى حد بعيد ما فعله اليهود ويفعلونه فى فلسطين فى الأربعينيات من هذا القرن وإلى الآن ، مما جعلنى أقول : ما أشبه الليلة بالبارحة !! وهذا صحيح : ففى البارحة التى يفصلنا عنها قرابة العشرين قرنا استغل اليهود اختلاف العرب وتناحرهم وتفرقهم ،

ففرضوا سيطرتهم عليهم وأخضعوهم لهم واستغلوهم ، بل وأذلوهم ، كما سوف نرى . واليوم يفعلون نفس الشيء ، إلى أن قدر للبارحة أن تنتهى ، وندعو الله العلى القدير أن ينتهى اليوم كما انتهت البارحة . وذلك لن يكون إلا إذا فعلنا كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذى لم ترهبه دعايات اليهود ولم يُخَفِّه استغلالهم بحماية إحدى الدولتين العظيمين فى زمنه ، وهى دولة فارس ، ولم يقف مكتوف اليدين أمام محاولات المنافقين والانتهازين ، ولم ترهبه قوة اليهود الحربية ، وإنما اعتمد على الله ، وتحت قيادة واحدة ، ومضى فى طريقه بإرادة قوية وعزيمة لا تلين ؛ ليستأصل المستوطنات اليهودية الواحدة بعد الأخرى دون أن يساوم أو يفاوض فيوقع نفسه فى حبال اليهود ويتوه فى دروب الأعيهم .

والواقع أن الجهد الذى بذلته فى هذا الكتاب لم يخرج عن حدود جمع مآثر فى كتب التاريخ والتفسير من معلومات تتعلق بموضوعنا ، والتنسيق بينها ، وتحليل وتفسير ما وجدته منها بحاجة إلى تحليل أو إلى تفسير ، وتمحيص ما عمض أو استبهم ، واستيفاء مانقص ، وبسط ماأجمل ، وبخاصة ماكانت له علاقة بالغزوات والمعارك التى لم يحظ الجانب الهام منها ، وهو النشاط العسكرى ، باهتمام المؤرخين المسلمين ، ناهيك عن المفسرين ، فجاء الكلام بشأنها ناقصا إلى درجة معيبة جعلته يبدو كما لو كان نزهة أو هجمة عشوائية تسودها القوضى وينقصها التخطيط .

ليس ذلك وحسب ، بل إن كتب التاريخ الإسلامى تركز بشكل

واضح على المرحلة المكينة من الدعوة بشكل يوحى للقارىء أن معاناة الرسول صلى الله عليه وسلم قد انتهت أو كادت بهجرته إلى المدينة . والغريب فى الأمر أن وسائل الإعلام — وبالذات الإذاعة المسموعة والمرئية — تركز على هذه المرحلة ، وتظهر المرحلة المدنية كما لو كانت مرحلة استرخاء وراحة وطمأنينة ، مما جعل الغالبية العظمى منا نحن المسلمين نظن أنه بالهجرة إلى المدينة خفت متاعب المسلمين بدرجة كبيرة وأحسوا بالطمأنينة والأمن بعد أن أصبحوا بين ظَهْرَانِي الأنصار ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما : ففى المدينة واجه الرسول صلى الله عليه وسلم متاعب من نوع جديد ، كما أن إحساسه بالطمأنينة والأمن كان شبه منعدم لأسباب عديدة : منها أن الذين أسلموا من الأوس والخزرج كان عددهم ضئيلا للغاية بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة للقبيلتين ، كذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليأمن نشوب الصراع فى أى وقت بين هاتين القبيلتين ، وأن يذهب كل ما بذله من أجل القضاء على أسباب الخلاف بينهما سُدى ، وأكبر دليل على صحة هذا حالنا الآن عرب القرن العشرين ، فإننا مانكاد نلتقى إلا وسرعان ما نفترق ، مما يجعل جمع الرسول لكلمة العرب معجزة بحق ، ندعو الله أن تتكرر .

كذلك فإنه كان يوجد بين الذين أسلموا من أفراد القبيلتين كثير من المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام لسبب أو لآخر ، فى حين أنهم يضمرون الكفر ، أو على الأقل يشكّون فى صدق النبوة ، وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن أُبَيّ بن سلول . ومن الأسباب أيضا ، بل

على رأسها ، اليهود الذين أقاموا في « يثرب » منذ زمن بعيد وكانت لهم بها ثلاث قبائل كبرى هى بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، والتي كان عدد أفرادها يتجاوز الخمسة عشر ألف فرد ، منهم حوالى الألفين والخمسمائة من المقاتلين الأشداء ، ولهم حصون منيعة وسلاح وعتاد جيدان ، فضلا عن الثروة الطائلة والتأثير الشديد في العرب ، وما كان لهم من تحالفات مع الأوس والخزرج على السواء .

وفضلا عن كل ذلك فقد كانت قريش ومعها القبائل العربية الأخرى لا تكف عن مهاجمة المدينة ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواجه خطرا أو تهديدا مزدوجا ، من الداخل ومن الخارج . وعادة فإن التهديد الخارجى يكون أهون من التهديد الداخلى ؛ حيث إنه يمكن رصد الأول وتوقعه قبل وقوعه واتخاذ مايلزم لمواجهة ، فى حين أن الثانى أى الداخلى يأتى بغتة ، ويكون أخطر لأنه يؤدى إلى شق الجبهة الداخلية ، وبالتالي إصابتها بالضعف فالانهيار . فما بالنا إذا تزامن التهديدان ، الخارجى والداخلى ، فأحرق الأول من الخارج ، وتفجر الثانى من الداخل ، إنها الكارثة التى لا يعلم مداها إلا الله . ومع ذلك يزعم بعض من لا عقل لهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتزوج ليستمتع بالنساء !! وكأن كل ما ذكرناه من أخطار لاوجود لها ، وكأن الرجل ليس رسولا يتلقى الوحي فيحفظه ثم يعلم أتباعه ، ويدعو من لم يتبعوه بعد ، وينظم شئون الجماعة ، ويشرف على مصالحها ، ويتعهدا بالنصح والتوجيه والإرشاد . ولو أنه كان كما يقولون ما استطاع أن ينجح فى أى عمل قام به ، ولعجز

عن استئصال المستوطنات اليهودية ، وللجأ إلى التوسل إلى هذه الدولة أو إلى تلك : لكي تفعل له شيئا يحفظ به ماء وجهه .

وهكذا نرى أن أحداث الماضي ليست مُنَبِّهَةً الصلة بالحاضر الذى نعيشه ، وإنما هى مرتبطة به أشد الارتباط ، فهاهم اليهود أعداء الله وأعداء الإسلام يعاودون الكرة ، فيعيدون إقامة مستوطناتهم فى فلسطين بمساعدة الغرب الصليبي ، ويسعون إلى إقامة دولة كبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، يكون المسلمون فيها عبيدا لهم وأتباعا أذلاء ، وتساعدهم الدول الصليبية نكاية فى الإسلام وأهله . « فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » ^(١)

ولعل الذين هللوا لمعاهدة « كمب ديفيد » واعتبروها نصرا لـ (مصر) قد أدركوا أن الأمر لم يكن كذلك ، وإنما هو نذير بالهزيمة الساحقة الماحقة التى يدبر اليهود وغيرهم لإنزالها بنا جميعا مصريين وغير مصريين ؛ ذلك لأن اليهود — ومن ورائهم الغرب الصليبي — لن يهدأ لهم بال أو يطمئن خاطر إلا بعد أن يقضوا على الإسلام ويجعلوا من المسلمين قطيعا ذليلا تقوده إسرائيل ، التى سيتمتد ملكها من النيل إلى الفرات تنفيذا للنبوءة التى يؤمن بها الصليبيون أيضا مثلما يؤمن بها اليهود ، ولم لا وكتابهم المقدس يتكون من التوراة والإنجيل معا ؟

(١) تكوين ، الإصحاح ١٥ ، فقرة ١٨

وليس بخافٍ على أحد أن القضاء على الإسلام يقتضى القضاء على مقدساته ، وفى مقدمتها الكعبة ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، والمسجد الأقصى فى القدس . ولقد بدأ اليهود بالأخير فاستولوا عليه عام ١٩٦٧ تحت بصر المسلمين وسمعهم . وأخذوا منذ ذلك الحين يقومون بأعمال تخريبية ضد المسجد الأقصى ، فأشعلوا فيه النار مرات ، وحفروا تحته ، ومايزالون يحفرون ، وكل ذلك بقصد هدمه وإقامة معبد لهم مكانه . وإذا كانت بعض الاعتبارات قد حالت دون ذلك ، فى الوقت الراهن ، فإن هذه الاعتبارات سوف تضعف ثم تزول فى وقت قريب ، وبالتالي يقدمون على هدم المسجد الأقصى دون أن يواجهوا مقاومة يعتد بها من جانب المسلمين الذين ستكون جماهيرهم مشغولة بمتابعة إحدى مباريات كرة القدم ، أو منصرفة إلى متابعة أخبار إحدى الراقصات .

أما الحكومات العربية والإسلامية العظيمة فلا بأس من أن تصدر بيانات تشجب فيها ما حدث ، وتستنجد بالحكومات الصديقة فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا والاتحاد السوفيتى ؛ لكى تتدخل وتمنع إسرائيل الكبرى من هدم المسجد ، وطبعاً لن تُخَيَّب هذه الحكومات ظن أصدقائها فيها ، ولن تتركهم ليفتضح أمرهم أمام شعوبهم ، وسوف تحتج بدورها وتشجب فى حين أن أيديها ممتدة من تحت الطاولة تصافح أيدي اليهود ، وتشد عليها ، تأييداً وتشجيعاً ، بل وتهنئة بتحقيق النبوءة وقيام الميكل .

وبعد ذلك سيأتى الدور على المسجد النبوى بالمدينة ، التى يزعم

اليهود أن لهم حقوقا فيها لا تقل عن حقوقهم في فلسطين والشام والعراق ومصر . فقد أقاموا فيها زمنا طويلا قبل الإسلام ، وكانت لهم فيها مساكن ومزارع وحصون وأموال استولى عليها المسلمون ، ولا نستبعد أن يخرجوا علينا ، في الوقت المناسب ، بادعاءات تقول إن المسجد النبوى أقيم على أراض كانت مملوكة لهم ، أو كان عليها بعض معابدهم ، أو مقدساتهم التى غطتها الرمال ، ويكرروا مايفعلونه الآن فى القدس من التنقيب تحت المسجد الأقصى توطئة لهدمه . وسوف يفعلون ذلك بسهولة أكبر ، حيث لن يكون للعرب الأشاوس أى وزن أو قيمة بعد نزع سلاحهم والقضاء على قوتهم بتفتيتهم وإضرار نار العداء بينهم وجعلهم يخافون من بعضهم البعض ، ويطمحون للغرب ولإسرائيل .

وأخيرا وليس آخرا ، أوجه كلمة للواهمين من الإخوة المصريين ، الذين يظنون أن اليهود قد تركوا سيناء نهائيا ، فأقول لهم : أفبقوا من وهمكم قبل أن تنتهبوا فجأة على قعقة المدرعات وأزيز الطائرات الإسرائيلية على أرض سيناء وفى سمائها ، وعندئذ تمطون شفاهمكم فى بلاهة وتزعمون أنكم خدعتم فيما قيل لكم وماسمعتموه ، وهو ماقلتموه من قبل ؛ لأنكم لا تقرأون التاريخ ولا تعملون عقولكم ، وإنما ترددون فى ثقة الجهال ما يصل إلى أسماعكم من كلام المنافقين والكذابين دون أن تُمحصوه ، أو لأنكم تجدون فيما حدث مافيه مصلحة لكم . إن سيناء ياسادة لا تقل أهمية وقداسة بالنسبة لليهود عن هيكल سليمان والقدس ، إن لم تكن تزيد ، فعلى جبلها قابل

موسى الرب حيث أعطاه العهد لبنى إسرائيل (شعبه المختار) ، كما نزل الرب على الجبل أمام عيون بنى إسرائيل « لأنه فى اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء » (٢).

وتصور التوراة ماحدث فى اليوم الثالث فتقول « وحدث فى اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صار رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جدا فارتعد كل الشعب الذى فى المحلة ، وأخرج موسى الشعب من المحلة للملاقاة الله ، فوقفوا فى أسفل الجبل ، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار ، وصعد دخان كدخان الأتون وارتجف كل الجبل جدا ، فكان صوت البوق يزداد اشتدادا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت ، ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل ، ودعا الله موسى إلى رأس الجبل فصعد موسى (٣).

كذلك فقد ظل موسى عليه السلام يُذكر اليهود ، إلى آخر لحظة فى حياته بما لجبل سيناء ولسيناء كلها من قداسة « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته . فقال ، جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سحير وتلألأ من جبل فاران » (٤).

فهل يمكن لعاقل أن يقول إنهم سيتركونها ؟

(٢) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرة ١١

(٣) خروج ، إصحاح ١٩ ، فقرات ١٦ - ٢١

(٤) تثنية ، إصحاح ٣٣ ، فقرة ١

كذلك فقد أصرروا على أن تتضمن اتفاقية « كمب ديفيد » نصوصا تعترف لهم ببعض الحقوق التى تضمن لهم عدم انقطاع صلتهم بسيناء . وهم يحرصون أشد الحرص على زيارتها فى كل عام ؛ لكى يعمقوا الإحساس بالانتماء إليها ، ويؤكدوا ارتباطهم بها . ليس ذلك وحسب ، بل إنهم يروجون أكاذيب أخرى بشأن أماكن أخرى يزعمون أن لهم حقوقا فيها ، بعضها يقع فى الوجه البحرى ، والبعض الآخر يقع فى الوجه القبلى . من ذلك — وعلى سبيل المثال لا الحصر — قولهم : إنه كانت لهم مستوطنة دائمة ومستقرة فى جزيرة « الفنتين » عند أسوان ، وهو مذكرته دائرة المعارف الأمريكية أو بالأحرى كاتبها اليهودى اللقيم الذى أرجع تاريخ إنشاء هذه المستوطنة إلى زمن الملك البابلى « نبوخذ نصر » الذى كان قد نفى اليهود من فلسطين فرحل بعضهم إلى مصر ، وكان بصحبته نبي لهم يدعى « جيريما » . وأنهم ظلوا يقيمون بهذه المستوطنة من القرن السادس قبل الميلاد إلى أن حدث ما أسماه الكاتب بالخروج الأخير من مصر فى الفترة ما بين عام ١٩٤٨م وعام ١٩٧٠م . وأن نبيهم « جيريما » مدفون بالجزيرة أى أنها ، هى الأخرى ، مكان مقدس عندهم !! وهكذا لن تفلت دولة من إدعاءات اليهود بوجود حقوق لهم فى جزء أو أكثر من أجزائها حتى هذه الدول الصليبية التى تقف الآن إلى جانب إسرائيل ضد العرب والمسلمين لن تفلت هى الأخرى ، كل ما فى الأمر أن الوقت لم يحن بعد لخروج إسرائيل عليها بادعاءاتها ، ويوم تقوم إسرائيل الكبرى التى تمتد من النيل إلى الفرات ، بفضل نخاذل العرب وتهالكهم على الدنيا ، ويعيهم للأخرة ، وتخليهم عن

أعظم ميراث ورثته أمة من الأمم — فسوف يكون الوقت قد حان
بالنسبة لإسرائيل للانتقام من الغرب الذى وقف إلى جانبها وأيدها
وأمدّها بالسلاح لتفتك بنا .
لقد بلغت ، اللهم فاشهد، والله الموفق

المؤلف



تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز

تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز

قبل أن نبحث في تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز قد يكون من المهم معرفة من هم اليهود ؟ ولماذا سموا كذلك ؟ وما الفرق بين الصفات : يهودى ، وعبرى ، وإسرائيلي ؟ ثم بعد ذلك نبين كيف نشأت العلاقة بين العرب واليهود ، وكيف تطورت على مدى التاريخ ؛ لما لذلك من علاقة بموضوع المستوطنات اليهودية .

العبرانيون ، اليهود ، بنو إسرائيل

يزعم اليهود — وبجراحة عجيبة اعتادوها — أنهم نسل من أسموهم بالعبرانيين وهم فرع آرامى من الساميين . وقد اختلف في أصل الكلمة « عبرى » فقال البعض إنها نسبة إلى « عابر » أو « عبر » ، وهو اسم الجد الأعلى لإبراهيم^(١) عليه السلام ، إنه لذلك أسمته التوراة إبراهيم العبرى . فقد جاء في سفر التكوين^(٢) أنه لما تم أسر جماعة لوط

(١) أبرهام معناها : الأب ذو المقام العالى أو الرفيع

(٢) الإصحاح ١٤ فقرة ١٣

« أتى من نجا وأخبر إبراهيم العبراني » بوقوع لوط في الأسر . ر في سفر الخروج^(٣) قال موسى وهارون لفرعون « إله العبرانيين قد التقانا » . وتكرر ذلك في الإصحاح السابع فقرة ١٦ عندما قال موسى لفرعون « أنا الرب إله العبرانيين أرسلني إليك قائلاً أطلق شعبي ليعبدوني في البرية » . كذلك تكرر ذكر العبرانيين في مواقع أخرى .

وهكذا يكون وصف العبري الذي أطلق على إبراهيم قد انتقل إلى نسله أو إن شئنا الدقة إلى نسل حفيده يعقوب دون بقية نسله من أبنائه وأحفاده الآخرين ، وذلك على الرغم مما هو معروف من أن اسم الجد الأعلى أو صفته تنتقل إلى كل أحفاده ونسله دون تمييز .

ولقد كان لإبراهيم عليه السلام أبناء آخرون غير إسحاق^(٤) وأحفاد آخرون غير يعقوب^(٥) بن إسحاق ، فالابن الأكبر لإبراهيم هو إسماعيل^(٦) الذي ولدته له السيدة هاجر . كذلك كان له أبناء آخرون ، حسب ما جاء في التوراة ذاتها : ففي سفر التكوين أن إبراهيم عليه السلام تزوج بعد وفاة السيدة سارة بامرأة اسمها « قطورة » ولدت له ستة أبناء ذكور ، هم زمران ، ويقشان ، ومدان ، ومديان ، ويشباق ، وشوحا . وأن هؤلاء الأبناء تزوجوا وأنجبوا ، فولد ليقشان شبا وددان ، ولمديان ولد عنية وعفر وحنوك وايداع والدعه . كذلك فإن ددان بن يقشان تزوج وأنجب أشوريم ولطوشيم ولأميم . ومعنى هذا أن بنى الأعمام ليسوا أبناء إسماعيل

(٥) معناها : ليحفظ إيل

(٦) معناها : ليمسح إيل

(٣) الإصحاح خمسة فقرة ٣ .

(٤) معناها : ليبتسم إيل

وإسحاق فقط ، بل وأبناء هؤلاء الستة أيضا فهم إخوة لإسماعيل وإسحاق .

كذلك فإن التوراة أيضا ذكرت أنه كان لإسحاق ابن آخر هو « عيسو » توعم يعقوب الذى أنجب عددا كبيرا من الأبناء . فلماذا استأثر أبناء يعقوب وأحفاده دون هؤلاء جميعا بوصف العبرانيين ، وهو اسم الجدد الأعلى لإبراهيم ، كما يقولون

وهناك رأى آخر يذهب إلى أن « عبرانيين » هو وصف أطلق على عشيرة إبراهيم التى هاجرت معه من موطنهم فى « أور » الكلدانيين ، فعبرت الفرات فى طريقها إلى « كنعان » فى فلسطين ، وأنه فى هذه الأثناء تعرضت لأخطار أنجاهها الله منها ، ثم تلا ذلك إعطاؤه العهد لإبراهيم . أى أنهم سموا « عبرانيين » لأنهم عبروا الفرات .

وهذا التفسير لأصل كلمة « عبرانيين » ينطبق عليه ماقلناه فى شأن التفسير السابق بل وأكثر ؛ فطبقا للتفسير الأخير لا يكون أبناء وأحفاد ، بل ونسل إبراهيم بصفة عامة هم « العبرانيون » ، بل كل العشيرة أو القبيلة التى كانت معه عند هجرته من « أور » الكلدانيين ، وكذلك أولادهم ونسلهم جميعا . فلا ندرى لماذا استأثر نسل يعقوب بهذا الاسم دون الجميع ؟

ليس ذلك وحسب ، بل إن من يسمون بالعبرانيين ، الذين عبروا مع إبراهيم عليه السلام لما دخلوا « كنعان » تراووا مع من كان يقيم بها من العناصر الأخرى .

وبعد ذلك لما فتح بنو إسرائيل « كنعان » بعد خروجهم من مصر

انضم إليهم أقاربهم الذين كانوا قد بقوا في البلاد ولم يهاجروا إلى مصر .

وهكذا انضم الذين لم يعبروا إلى الذين عبروا ، فكانت النتيجة هي ما يسمى بالشعب العبراني الذي امتزجت فيه عروق مختلفة ومتنوعة انضم عناصر سامية-وحدورية وحنية وغير ذلك من العناصر غير السامية .

أما اللغة المسماة بالعبرية ، فهي ليست اللغة الأصلية للقبيلة التي هاجرت مع ابراهيم من بلاد الرافدين ، فذلك كانت لهجتها سامية قديمة ، أما اللغة التي اتخذها العبرانيون فهي الكنعانية . وقد لوحظ أن اللغة الفينيقية القديمة واللغة العبرانية القديمة ، أى التي استعارها العبرانيون ، كما هي مدونة في العهد القديم — لا تختلفان إلا من حيث اللهجة . وتعتبر اللغة الكنعانية من بين مظاهر حضارية كنعانية أخرى كثيرة ورثها العبرانيون .

أما الرأي الأخير ، وهو أضعف الآراء ، فيذهب إلى أن « العبرانيين » هم أنفسهم « الخبيرو » الذين ورد ذكرهم في ألواح تل العمارنة على أنهم غزوا مصر في القرن الخامس عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد . ولكن الخبيرو كانوا شعبا شبه رعوى ، كما أن الكلمة « خبيرو » لا تدل على جماعة عرقية أو لغوية ، فضلا عن أن مجيئهم إلى مصر كان أثناء وجود أبناء يعقوب وأحفاده فيها ، ولو أن الخبيرو كانوا آراميين أيضا .

وبالنسبة لكلمة (يهود) ، فإن مصدرها هو إقليم يهودا ، فسمى من كان يقيم به من نسل يعقوب باليهود نسبة إليه ، وإن كان الإقليم قد اكتسب هذا الاسم من أبناء وأحفاد يهوذا بن يعقوب الذين أقاموا فيه . ولم يظهر هذا الاسم في الاستعمال إلا بعد أن تم نفى اليهود إلى بابل عام ٥٨٧ ق.م فقد سمي المنفيون باليهود نسبة إلى إقليمهم ، على الرغم من أن كثيرين ممن ينتمون إلى بقية الأسباط كانوا يقيمون معهم ، فضلا عن آخرين من سكان البلاد الأصليين .

أما كلمة « إسرائيل » فهي الاسم الذى أطلقه الله على يعقوب عليه السلام . ومعناها ليحفظ لىل ، وبذلك أصبح أبناء وأحفاد إسرائيل (يعقوب) يدعون بنى إسرائيل . وهم الذين ولدوا بمصر في الفترة الواقعة بين مجيء يعقوب وأبنائه وخروج موسى وأتباعه .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس هناك أى تطابق بين الصفات الثلاث : عبرى ، ويهودى ، وإسرائيلى . فليس كل من عبروا مع إبراهيم عليه السلام يهودا أو إسرائيليّين ، وليس كل اليهود أو الإسرائيليين عبريين ، وإنما هى ألعيب وجيّل من بنى إسرائيل أرادوا بها أن يجعلوا لأنفسهم عرقا ووطنا ودينا .

علاقة العرب باليهود

كما هو معروف ، فإن العرب واليهود أحفاد جد واحد هو إبراهيم عليه السلام فهم — إذن — أبناء عمومة ، فالجد المباشر لليهود هو إسحاق أخو إسماعيل جد العرب . وهو في نفس الوقت عم يعقوب (إسرائيل) الذى أطلق اسمه على اليهود ليصبحوا بنى إسرائيل وإن

كانت هناك تفصيلات أخرى تتعلق بكلا الفريقين ، أى العرب واليهود ، منها أن بداية العرب لم تكن بإسماعيل وأبنائه ، فقد كان للعرب وجود بالجزيرة العربية قبل أن يذهب إليها إسماعيل مع أبيه إبراهيم عليهما السلام وأمه السيدة هاجر ، حيث شب عن الطوق وأصبح شابا فتزوج منهم وأنجب .

كما أن بداية اليهود لم تكن بإسحاق أو يعقوب عليهما السلام ، حيث إن كليهما تزوج من الجماعات التى كانت تقيم في الشام والعراق ، وهم بالقطع لم يكونوا لإسرائيليين أو يهودا .

وعلى الرغم مما يقوله العرب من أن إسماعيل عليه السلام تزوج عربية ، حيث كان يقيم بالقرب من مكة ، فإن اليهود يزعمون أنه لما بلغ الحلم تزوج من مصر ، وهو ما ذكرته التوراة ^(٧) : « فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامى قوس ، وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » . وهذا كذب محض ؛ فإسماعيل عليه السلام لم يقيم في برية فاران التى توجد في شبه جزيرة سيناء ، وإنما أقام في واد غير ذى زرع ، حيث توجد الكعبة في مكة .

والثبوت للدهشة حقا هو أن التوراة كانت قد ذكرت حين حديثها عن مفارقة السيدة هاجر وابنها للمكان الذى كان يقيم فيه إبراهيم عليه السلام والسيدة سارة — أنها ، أى هاجر تاهت مع ابنها في برية بحر

(٧) تكوين ، الإصحاح ٢١ ، فقرة ٢٠

سبع ، لا فى برية فاران : « فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها مهاجر واضعاً إياها على كتفها والولد وصرفها ، فمضت وتاهت فى برية بئر سبع ، ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ، ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس ؛ لأنها قالت : لا أنظر موت الولد ، فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت ، فسمع الله صوت الغلام ، ونادى ملاك الله مهاجر من السماء ، وقال لها : مالك يا مهاجر ؟ لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احملى الغلام وشدى يدك به ؛ لأنى سأجعله أمة عظيمة »^(٨) ويبدو أن الذين حرفوا التوراة بإضافة مثل هذا الكلام إليها نسوا أنه سبق لهم أن قالوا - وفى نفس السفر - إن إسماعيل حين ختنه أبوه إبراهيم كان فى الثالثة عشرة من عمره : « وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته ، فى ذلك اليوم عينه خنز إبراهيم إسماعيل ابنه ، وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه »^(٩) .

وهكذا يكون إسماعيل قد بلغ الرابعة عشرة من العمر حين أخذته أمه ورحلت ، حيث إن ذلك حدث بعد ولادة إسحاق . فكيف بالله تطرح مهاجر صبيها مرافقاً تحت إحدى الأشجار ؟ وكيف تحمله وهو الذى لا يقل عنها طولاً ؟ بل كيف يبكى أصلاً ومثله فى الريف أو فى البادية يعمل ويكد ويرعى أمه وإخوته ؟ إذا كان هذا غير صحيح ،

(٨) تكوين ، الإصحاح ٢٧ ، الفقرات من ١٤ إلى ١٨

(٩) تكوين ، الإصحاح ١٧ ، الفقرات من ٢٥ إلى ٢٧

فمن باب أولى ماذكرته التوراة من أن إسماعيل عاش في برية فاران في سيناء وتزوج وأنجب فيها أولاده الاثنى عشر ذكرا ، فالثابت أن إسماعيل أقام بالقرب من مكة وتزوج من العرب وأنجب وأنه جد مايسمى بالعرب المستعربة ، وليس مايمنع أن يكون قد تزوج فيما بعد بامرأة من مصر بلد أمه التي قد تكون استأنفت صلتها بأهلها وزارتهم وزاروها ، فقد كانت القوافل رائحة غادية بين مصر وما جاورها من بلاد .

ولقد أطلق اليهود على نسل إسماعيل اسم الإسماعيلية ، كما سنرى فيما بعد ، أما هم فلم يعرفوا باسم بنى إسرائيل إلا بعد أن أطلق الله هذا الاسم على يعقوب كما بينا ، ونحن نعرف القصة التي تصف غدر أبناء يعقوب « إسرائيل » بأخيهم يوسف وكيف ألقوه في البئر ، وما انتهى إليه الأمر ببيعه في مصر حيث اشتراه « العزيز » ، وما وقع له مع امرأة هذا العزيز ، وأدى إلى سجنه ، ثم تفسيره للحلم الذي رآه الملك إلى أن تعرف على إخوته وتم الصلح بينه وبينهم ، ومجيء يعقوب وأسرته إلى مصر حيث أقاموا بها .

ويقال إن هذه الأحداث وقعت أثناء حكم الهكسوس لمصر ، وهو الحكم الذى يوجد اختلاف بين العلماء بشأن المدة التي استغرقتها : فهناك من يقولون : إنه دام أربعة قرون ، وهناك من يقولون إنه دام قرنين أو ثلاثة ، ويحددونه لذلك بالحقبة من القرن ١٨ إلى القرن ١٦ قبل الميلاد . فربما يكون مجيعهم في أولها أو في منتصفها ، فلم يحثر بعد في آثار المصريين القدماء على مايشير إلى هذه الأحداث ، وإن كان لا يوجد أدنى شك في حدوثها .

ولقد كان عدد الذين دخلوا مصر مع يعقوب عليه السلام لا يزيد
أى حال عن سبعين فردا، بما فيهم أبناءه الإحدى عشر وزوجاتهم
وأحفاده ، وبعض الأتباع كالخدم وغيرهم . ففى التوراة : « جميع
نفوس بيت يعقوب التى جاءت إلى مصر سبعون » ^(١٠)

وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد خرج بنو إسرائيل من مصر
تحت قيادة موسى عليه السلام ، أى أنهم أقاموا فى مصر أربعة قرون ،
وفى التوراة ^(١١) « وأما إقامة بنى إسرائيل التى أقاموها فى مصر
فكانت أربعمئة سنة وثلاثين سنة » .

وفيما يتعلق بعدد من خرجوا مع موسى زعم اليهود أن عددهم
كان أكثر من ستائة ألف رجل ؛ ففى التوراة : ^(١٢) « فارتحل بنو
إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت نحو ستائة ألف ماش من الرجال
عدا الأولاد ، وصعد معهم لفيف كثير أيضا مع غنم وبقر ومواش
وافرة جدا » . ويضاف إلى هؤلاء (٢٢٠٠٠) هم ذكور سبط
لاوى الذين لم يدخلوا فى العدد .

وهذا معناه أن العدد الإجمالى لمن خرجوا مع موسى يزيد على
المليون ونصف المليون ، وهو ما لا يمكن لعقل أن يتصوره ؛ إذ كيف
تسنى لموسى قيادة هذا العدد الهائل من البشر والخروج بهم من
مصر ؟ وكيف عبر بهم البحر حين انشق ؟ وكم من الوقت دام

١٠ — تكوين ، الإصحاح ٤٦ ، فقره ٢٧ .

١١ — خروج ، الإصحاح ١٢ ، فقره ٤٠ .

١٢ — خروج ، الإصحاح ١٢ فقره ٣٧ ، ٣٨ .

انشقاق البحر لير هذا العدد المائل، خاصة مع ما عرف من أن اليهود قد حملوا معهم ممتلكاتهم التي وضعوها على عربات ثقيلة تجرها الثيران ، ولم يتركوا شيئاً للمصريين ، حتى البط والأوز ، وكل ما يحتوى البيت ، حملوه معهم .

ولقد ذكرت التوراة^(١٣) أن عبور البحر استغرق بضع ساعات هي مدة الليل ، « وانتقل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم ، فدخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل ، وصار السحاب والظلام وأضاء الليل ، فلم يقترب هذا إلى ذاك كل الليل ، ومد موسى يده إلى البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل ، وجعل البحر يابسة وانشق الماء ، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر ، وكان في هزيع الصباح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين ... فقال الرب لموسى مُدِّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين ، على مركباتهم وفرسانهم ، فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصباح إلى حاله الدائمة » .

فهل يتصور عاقل أن مليوناً ونصف المليون من البشر ، مع كل ممتلكاتهم يمكن أن يعبروا البحر من ضفة إلى ضفة في مدة لاتزيد على

(١٣) خروج ، الإصحاح ١٤ ، الفقرات من ٢٠ إلى ٢٧ .

تسع ساعات ، أو حتى اثنى عشرة ساعة ؟ طبعاً مستحيل . ولما كنا لانشك في واقعة انشقاق البحر وعبور موسى ومن كانوا معه ، فلم يبق إلا أن نشك في العدد الذى ذكرته التوراة ، خاصة بعد أن أصابها التحريف الواضح بسبب عبث اليهود بها .

وقد اعترض كاتب دائرة المعارف الأمريكية على هذا التقدير المبالغ فيه جداً وقال : إنه في أفضل الحالات ، فإن الذين خرجوا من مصر مع موسى ليسوا إلا عدداً قليلاً من القبائل أو العشائر ، وإن النظرية المعقولة ، والتي تبدو مقبولة أكثر من غيرها ، هى التى تقول : إن الذين خرجوا من مصر هم نسل يوسف ثانى أصغر أبناء يعقوب . أى أن من رأى الكاتب أن بقية إخوة يوسف لم يقيموا بمصر ، وبالتالي لم تكن لهم ذرية فيها ، وإنما ظلوا يقيمون حيث كانوا .

ولكن الصحيح هو ما ذكره القرآن الكريم من أن الخارجين من مصر كان منهم ذرية الأسباط كلهم (يوسف وإخوته) وهم اثنا عشر سبطاً ، ولذلك فإنهم لما أصابهم العطش وهم في سيناء فجّر لهم الله اثنى عشرة عينا ، لكل سبط منهم عين . حيث يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ

فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ۖ كُلُوا

وَأَشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ فلو أن الذين خرجوا هم أحفاد يوسف فقط ماكانت هناك حاجة إلى

(١٤) البقرة ٦٠

تفجير هذا العدد من العيون الذى كان السبب فيه منع الخلاف بين اليهود ودرء الصدام بين أحفاد كل سبط .

ويرى كاتب دائرة المعارف الأمريكية أن العدد الإجمالى لمن خرجوا من مصر مع موسى لم يكن يزيد على بضعة آلاف ؛ حيث إنه على الرغم من أن بنى إسرائيل مكثوا فى مصر حوالى أربعة قرون ، مما يحتمل معه أن يصل عددهم إلى المليون أو قريب منه ، غير أنه بالنظر إلى أنهم كانوا مجتمعاً مغلقاً يتزوج أفرادهم من داخله ، فقد أدى هذا إلى انخفاض معدل الإنجاب لديهم وضعف نسلهم مما رفع من معدل الوفيات بين أطفالهم . وهو ما لوحظ أيضاً لدى يهود الشتات فى القرون الأخيرة ، وهم اليهود الذين أقاموا فى الدول المختلفة داخل مايسمى بالـ (جيتو) واستمروا فى الزواج فيما بينهم . ولكن منذ أن أقام اليهود دولتهم فى فلسطين السليبية أخذ معدل المواليد يزيد بشكل ملحوظ ، وأصبحت هناك أسر لديها عشرة أبناء ، بل واثنا عشر ابناً ، وهو ما لم نكن نسمع به من قبل .

كذلك فإنهم لو كانوا — كما زعموا — أكثر من مليون ونصف مليون يهودى خرجوا من مصر ، لكان بمقدور فرعون وجيشه أن يقضوا على معظمهم قبل أن يتمكنوا من عبور البحر حين انشق لهم . وكان ذلك ، كما ذكرنا ، فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، حيث إنه يعترف الآن بصفة عامة أن موسى عليه السلام عاش فى الفترة بين ١٣٥٠ و ١٢٥٠ قبل الميلاد .

وهكذا ظهر بنو إسرائيل بعد أن خرجوا من مصر ، ولم يكن لهم

إلا وجود لا يكاد يلحظه أحد ، قبل ذلك بأكثر من أربعمئة سنة .
وكان أبناء عمومهم قد استقروا هنا وهناك : أبناء عمهم إسماعيل في
الحجاز ، وأبناء عيسو عمهم المباشر ، توعم أيهم في المنطقة التي
تجاور الحجاز من الضفة الشرقية للأردن .

وليس معروفا على وجه التحديد ما إذا كانت هناك علاقات بين
إسحاق وأبنائه وأحفاده من ناحية ، وبين إسماعيل وأبنائه وأحفاده من
ناحية أخرى أم لا ؟ . وإذا كانت هذه العلاقات قد وجدت فماذا
كانت طبيعتها ؟ هل كانت وُدِّيَّة أو عدائية ؟ . فالتوراة وهي المصدر
الوحيد في هذا الشأن لا تذكر شيئا عن إسماعيل بعد مجيئه ليشترك مع
أخيه إسحاق في دفن أبيهما إبراهيم عليه السلام ، فهي تقول :
« ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون بن
صوحر الحثي الذي أمام ممرا ^(١٥) » .

ولقد كان هذا هو اللقاء الأخير بين الأخوين على ما يبدو ، حيث
لم تشر التوراة إلى أن ذلك قد حدث . ولكنها ذكرت أن الابن البكر
لإسحاق وهو عيسو توعم يعقوب ذهب إلى عمه إسماعيل وتزوج
ابنته « محله » ^(١٦) التي غيرت التوراة اسمها في موضع آخر ^(١٧) فجعلته
« بسمة » فقالت « بسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت » .

(١٥) تكوين ، الإصحاح ٢٥ فقرة ٩

وبغض النظر عن هذه الأخطاء الفاحشة ممن عبثوا بالتوراة ، فإن معنى ما ذكرته أنه كانت توجد صلات بين عيسو وعمه إسماعيل . وربما يكون عيسو قد حرص على الاتصال بعمه بدافع من العاطفة ، ولكن لاشك أيضا أنه كان لموقف أبيه منه وتفضيله ليعقوب عليه ، حيث اختصه ببركته دونه — أثر في تصرفه على هذا النحو حيال عمه الذى كان هو الآخر قد حرم من الإقامة مع أبيه ومن وراثته ، على الرغم من أنه كان الأكبر . ولكن لأنه كان ابن جارية فقد استبعد . وهكذا جمع الاضطهاد بين عيسو وعمه إسماعيل عليه السلام . وإن كان إسماعيل نفسه لم يساوره هذا الإحساس أبدا ؛ فقد نظر إلى أمر إبعاده هو وأمه إلى ذلك المكان المقفر باعتباره مما لا مناص من تنفيذه ؛ لأنه صادر من الله ، تماما كما نظر إلى الأمر الصادر بذبحه والذى امثل له تماما .

ولكن يبلو من عدم وجود علاقات بين أبناء يعقوب وكل من أبناء عمهم عيسو وعم أبيهم إسماعيل ، أنهم كانوا يعانون من إحساس كاذب بالتمييز عليهم جميعا ، على الرغم من أن أبناء عيسو — على حد ما ذكرته التوراة — صاروا ملوكا وأثرياء ، وذلك على خلاف ما حدث لأبناء يعقوب الذين عانوا الكثير ، وهو ما يمكن أن يكون سببا في حقدهم على بنى عمومهم ، ولعلنا نذكر حقدهم وغيرتهم من أخيه يوسف عليه السلام وتأمرهم عليه ، فمن باب أولى أبناء عمهم وعم أبيهم .

وبطبيعة الحال ، فإن انتقال يعقوب عليه السلام ومعه أبنائه

للعيش في مصر يحتمل أن يكون قد أدى إلى ضعف الصلات بأبناء إسماعيل ، أو انقطاعها ، بل يبدو أنها كانت مقطوعة قبل ذلك . ففيما ذكرته التوراة من أن قافلة الإسماعيليين هي التي ابتاعت يوسف من إخوته يظهر أن الفريقين كانا يتعاملان مع بعضهما البعض كغرباء ، فبعد أن ألقى أبناء يعقوب بأخيهم في البئر « ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة من جلعاد وجماهم حاملة كثراء ولبسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ^(١٨) وبعد هذه الواقعة لم يرد ذكر للإسماعيليين في التوراة ، حيث انقضت أربعة قرون أو أكثر على بنى إسرائيل في مصر ، ثم خرجوا تحت قيادة موسى عليه السلام ليبدأ احتكاكهم من جديد بالناس خارج مصر ، ونقرأ في التوراة أنهم اشتبكوا في حرب مع « العماليق » « وأتى عماليق وحارب إسرائيل في ريفيديم ، فقال موسى ليشوع انتخب لنا رجالا واخرج حارب عماليق ، وغدا أقف أنا على رأس التلة وعصا الله في يدي ، ففعل يشوع كما قال موسى ليحارب عماليق ، ولما هزم يشوع عماليق فقال الرب لموسى اكتب هذا تذكارا في الكتاب وضعه في مسامع يشوع فأني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء ، فبنى له موسى مذبحا ودعا اسمه يهوه نسي ، وقال إن البلد على كرسي الرب ، للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور ^(١٩) » .

(١٨) تكوين ، الإصحاح ٣٧ ، الفقرة ٢٥

(١٩) الخروج ، إصحاح ١٧ ، فقرة ٨ وما يليها

وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن العماليق هم عرب .
فجورجى زيدان يقول : إن العماليق هم أصل سائر العرب البائدة ،
أو هو اسم يشملهم جميعا . ويقول : إن المؤرخين يربطون بالعمالقة
قد ماء العرب ، وخصوصا أهل شمال الحجاز مما إلى جزيرة سيناء .

ويقول الدكتور حسين مؤنس في تعليقه على جورجى زيدان : إن
العماليق كانوا على أصح الآراء يسكنون جنوبى فلسطين ، ومن هنا
كان العداء الشديد بينهم وبين العبرانيين ، وهذا يفسر لنا سر عداوة
التوراة لهم ، وبسبب هذه العداوة كثر تردد اسم العماليق في
التوراة ، ورويت عنهم القصص ، وبالعنصرية في أوصاف أجسامهم
وضخامتها ، وجعلوهم أقدم شعوب الأرض ، وكانت لهم غارات
على ماجاورهم من أراضي الرافدين ومصر ، واستقر بعضهم فيها .

ومما ورد في التوراة توصية ، أو أمر من الله لموسى « اذكر ما فعله
بك عماليق في الطريق عند خروجك من مصر ، كيف لاقاك في
الطريق وقطع من مؤخرك كل المستضعفين وراءك وأنت كليل
ومتعب ولم يخف الله ، فمتى أراحك الرب إلهك من جميع أعدائك
حولك في الأرض التى يعطيك الرب إلهك نصيبا لكى تمتلكها تمحو
ذكر عماليق من تحت السماء ، لاتنس^(٢٠) . وفيما بعد أطلق اليهود

(٢٠) تثية ، الإصحاح ٢٥ ، الفقرات من ١٧ إلى ١٩

على العرب أسماء أخرى منها بنو قيدار ، وقيدار هو أحد أبناء إسماعيل ، كما يقولون ، وبنو المشرق ، وغير ذلك مما سوف نصادفه أثناء الدراسة . وكان موقفهم منهم دائما عدائيا ، فهم إذا لم يتوعدوهم بالحرب والانتقام الشديد والإبادة ، تنبؤوا لهم بالمصائب تحل بهم ، وبالغوا في إظهار الشماتة فيهم إذا حلت بهم : ففي القرن السادس قبل الميلاد هاجم نبوخذ نصر الحجاز وهزم العرب — بنو قيدار — في البداية ، وهذا الخبر جاء في شكل نبوءة في سفر ارميا على الوجه الآتي : « على قيدار وممالك حاصور التي ضربها نبوخذ نصر ملك بابل ، وهكذا قال الرب قوموا احصلوا إلى قيدار ودمروا أبناء المشرق ، إنهم يأخذون أخبيتهم وغنمهم ويستولون على شققهم وجميع أدواتهم ولبلهم وينادون عليهم بالهول من كل جانب ^(٢١) » .

ظهور اليهود في الجزيرة العربية

اختلفت الآراء في شأن الوقت الذي ظهر فيه اليهود في الجزيرة العربية ، وعلى وجه الخصوص في المنطقة الممتدة من حدودها مع فلسطين إلى المدينة أو يثرب ، كما كانت تسمى قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . فهناك رأى يذهب إلى أنهم جاءوا إليها أيام موسى عليه السلام (القرن الثالث عشر) قبل الميلاد . ويورد ياقوت في معجمه قصة تتحدث عن السبب الذي من أجله جاء اليهود إلى المدينة أيام موسى فيقول : إن السبب هو أن موسى بن عمران عليه السلام ، بعث إلى الكنعانيين حين أظهره الله تعالى على فرعون

(٢١) أرميا ، الإصحاح ٤٩ ، الفقرة ٢٨

فوطىء الشام وأهلك من كان بها منهم ، ثم بعث بعثا آخر إلى العماليق بالحجاز وأمر جنوده ألا يستبقوا أحدا ممن بلغ الحلم إلا من دخل في دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم ، فأظهرهم الله عليهم فقاتلوهم وقتلوا ملكهم الأرقم وأسروا ابنا له شابا جميلا كأحسن من رُئي في زمانه فضنوا به عن القتل وقالوا : نستحييه حتى نقدم به على موسى فيرى فيه رأيه ، فأقبلوا وهو معهم وقبض الله موسى قبل قدومهم ، فلما قربوا وسمع بنو إسرائيل بذلك تلقوهم وسألوهم عن أخبارهم ، فأخبروهم بما فتح الله عليهم ، قالوا : فما هذا الفتى الذى معكم ، فأخبروهم بقصته . فقالوا : إن هذه معصية منكم لمخالفتكم أمر نبيكم ، والله لا دخلتم علينا بلادنا أبدا ، فحالوا بينهم وبين الشام ، فقال ذلك الجيش : ما بلد إذ منعتم بلدكم خير لكم من البلد الذى فتحتموه وقتلتم أهله ، فارجعوا إليه ، فعادوا إليها فأقاموا بها ، فهذا كان أول سكنى اليهود الحجاز والمدينة ، ثم لحق بهم بعد ذلك بنو الكاهن بن هارون ، عليه السلام ، فكانت لهم الأموال والضياع بالسافلة ، والسافلة ماكان فى أسفل المدينة إلى أخذ .

وهذه القصة من الإسرائيليات التى انتشرت فى كتب العرب بعد الإسلام ، دسها اليهود عليهم لكى يوهموهم بقدم وجودهم بالحجاز ، الذى يرجع إلى ما قبل هجرة الأوس والخزرج بأكثر من ثمانية عشر قرنا ، أى أنهم يقصدون أن يقولوا لهم : نحن هنا قبلكم . فما جاء فى التوراة ليس فيه شاب جميل ولا عودة للجيش إلى الحجاز .

أما الرأي الثانى فهو الذى يذهب إلى أن اليهود جاءوا إلى (يثرب) فى عهد « نبوخذ نصر » عقب إنزاله الهزيمة بمملكة يهودا عام ٥٨٦ قبل الميلاد وتدميره لهيكل سليمان عليه السلام . ففى ذلك الوقت نزح عدد كبير من اليهود إلى الجزيرة العربية حتى لا يقعوا فى أسر البابليين الذين نفوا الآلاف من اليهود إلى بابل فيما يسمى بالنفى البابلى .

وهناك رأى ثالث ، وهو الراجح ، يذهب إلى أن انتقال اليهود إلى الحجاز كان أثناء حكم الرومان لفلسطين ، وبعد ظهور المسيحية . ويذكر ياقوت قصة أخرى طريفة تتحدث عن السبب فى نزولهم المدينة ، وهو أن ملك الروم حين ظهر على بنى إسرائيل وملك الشام أراد أن يتزوج إحدى اليهوديات من أحفاد هارون ، وكان اليهود جريا على عادتهم لا يزوجون بناتهم للنصارى ، فخافوا إن هم رفضوا أن ينكل الملك بهم ، فلدجوا إلى الحيلة . وذلك بأن قدموا له الهدايا ووجهوا إليه الدعوة لزيارتهم ، فلما ذهب إليهم فتكوا به وبمن معه ، ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز وأقاموا بها . وهذه خرافة أخرى من خرافات اليهود التى روجوا لها ليظهروا استعلاءهم على الشعوب الأخرى ، فى حين أن الحقيقة خلاف ذلك تماما ، فهم لم يتورعوا طيلة تاريخهم عن التضحية بشرف نسائهم من أجل بلوغ غاياتهم ، فقد خرجوا من بابل بعد نفيتهم إليها بفضل مجهودات امرأة منهم شديدة الجمال قدموها للقائد الآشورى لتكون محظية له ، وهم الذين استغلوا الجنس فى التجسس على أعدائهم وأشاعوا الفساد والانحلال فى العالم كله ، ولو أنه صح أن ملكا رومانيا رغب فى الإصهار إليهم

لقدموا له بدل المرأة عشرات . وإنما أرادوا أن يقولوا للعرب : إننا رفضنا أن نزوج ابنتنا لملك كبير روماني فمن باب أولى لانزوجكم بناتنا . ومع ذلك فإن في هذه القصة جزءا صغيرا له صلة بالحقيقة وهو الجزء الخاص بزمان هجرتهم إلى الحجاز .

ذلك أنه لما أعلن اليهود التمرد على الرومان واشتبكوا معهم في معارك انتهت بهزيمتهم ، أى هزيمة اليهود ، هرب عدد كبير منهم من وجه الرومان إلى الجزيرة العربية ، وكان ذلك في القرنين الأول والثاني الميلاديين ، وعلى الرغم من أن بعض العلماء العرب ذكروا ذلك ، فإنهم استمروا في ترديد أكاذيب اليهود ، فها هو الأصفهاني يقول : لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا في الشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل هارين منهم إلى من بالحجاز لما غلبتهم الروم على الشام . وهو ما كان يقوله يهود بنو قريظة من أنهم ولوا هارين من الشام يريدون الحجاز الذى فيه بنو إسرائيل ليسكنوا معهم ، يقصدون أنه كان بالحجاز يهود قبل الاضطهاد الروماني ، كذلك زعموا أنهم لما غادروا الشام وجه ملك الروم في طلبهم من يردهم ، فأعجزوا رسله وفاقوهم ، وانتهى الروم إلى « ثمد » بين الشام والحجاز فماتوا عنده عطشا ، فسمى ذلك الموقع ثمد الروم فهو معروف إلى ذلك اليوم ، كما يقول ياقوت .

والصحيح أن نزوج اليهود إلى الحجاز قد حدث مرتين : الأولى عام ٧٠م عندما شن « طيطس » الروماني حربا على اليهود في

فلسطين ، فاقتحم أروشليم وأعمل القتل والسلب والتدمير فيها حتى تركها قاعا صفا وقد ذكر المؤرخ اليهودي « يوسفوس » أن عدد قتلى اليهود زاد على المليون بالإضافة إلى من أسرههم طيطوس ، والذين زاد عددهم على مائة ألف ، ويقول : إنه نزح عدد كبير من اليهود إلى قبرص ومصر والقيروان والحجاز ، ولم يبق منهم إلا شرذمة ضعيفة .

أما المرة الثانية فكانت عام ١٣٢ ميلادية في عهد « هادريان » الذي كرر ماسبق أن فعله سلفه طيطوس . ويقول توماس أرنولد : إن هذا الإمبراطور نكل باليهود تنكيلا شديدا دفعهم إلى النزوح إلى الجزيرة العربية .

والملاحظ أنه لا توجد في المصادر اليهودية أية إشارة إلى ما كان يقوله يهود بنو النضير ، وإنما الذي ذكرته هذه المصادر أن اليهود ظهروا في الحجاز بعد ميلاد المسيح . فقد جاء في الموسوعة الإسلامية المبصرة أن التلمود يشير إلى أنه كان ببلاد العرب يهود في القرون المبكرة من العصر المسيحي ، وأن هذا يعنى شمال بلاد العرب بصفة أساسية . كما أن عددهم كان كبيرا بدرجة ملحوظة .

وبطبيعة الحال ، فإن الطلائع الأولى لليهود الذين فروا من وجه الاضطهاد الروماني لأول مرة أيام « طيطس » لم يندفعوا إلى عمق الحجاز ، من قبيل الحذر والحيطه ، فهم لا يدرون شيئا عما يمكن أن يصادفهم ، وإنما بدعوا بالاستيلاء على الواحات القريبة من الحدود واستقروا فيها ، ثم أخذوا ، بعد ذلك يتقدمون إلى الداخل ، في أعداد

أخذت تتضاعف إلى أن بلغت أوجها في الاضطهاد الثانى أيام « هادريان » فلحق الهاربون الجدد بمن سبقهم من إخوانهم ، الذين كانوا قد بلغوا « يثرب » ، بعد أن استولوا فى طريقهم على فذك وتبوك ومقنا وخيبر ووادى القرى وغيرها .

و غالبا ، فإن بنى النضير وبنى قريظة جاعوا فى الموجة الثانية ، أيام هادريان . ويذكر الاصفهائى أن هاتين القبيلتين ومعهم بنو يهدل جاعوا إلى يثرب أيام الاضطهاد دون أن يحدد أى اضطهاد ، ولكنه يقول : فلما قدم بنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل المدينة نزلوا الغابة ، فوجدوا أنها وبيه ، أى غير صحية ، فكروها وبعثوا رائدا أمره أن يلتمس لهم منزلا سواها ، فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور : واديان من حرة على تلاح أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع إليهم ، فقال : قد وجدت لكم بلدا طيبا نزاها على حرة يصب فيها واديان على تلاح عذبة ومدره طيبة فى متأخر الحرة ومدافع الشرج ، فقال : تحول القوم إليها من منزلهم ذلك ، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان ، وكانت لهم إبل نواعم ، فاتخذوها أموالا ، ونزلت بنو قريظة ويهدل ومن معهم على مهزور ، فكانت لهم تلاح وما سقى من بعثات وسموات فكان ممن يسكن المدينة — حين نزل بها الأوس والخزرج — من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو يهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود ، فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود ، وكان بنو مرانة فى موضع بنى

حارثة ، ولهم كان الأطم الذى يقال له الخال . وكان معهم من غير بنى إسرائيل بطون من العرب منهم : بنو الحرمان حتى من اليمن وبنو مرثد حتى من بلى ، وبنو أنيف من بلى أيضا ، وبنو معاوية حتى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة ، وبنو الشظية حتى من غسان .

هذا ، غير اليهود الذين أقاموا فى المسوطنات الأخرى ، ومنها خيبر وفدك ومقنا وتبوك ووادى القرى . مما يدل على أن عددهم كان كبيرا .

وترجح الموسوعة العربية الميسرة أن تكون القبيلة اليهودية التى اسمها بنو قينقاع هى أول القبائل اليهودية وطلعتها فى غزو يثرب ، ونقول الموسوعة : إن هذه القبيلة لعبت دورا بارزا فى هجرة اليهود ، ذلك أن اسمها أطلق فى تاريخ متأخر على أحد الأسواق الرئيسية بالبحر العربى ، ولكن بالتدرج أصبحت قريظة والنضير القبائل الرئيسية فى صفوف يهود المدينة .

أما عن الكيفية التى دخل بها اليهود إلى الحجاز حيث أقاموا مستوطناتهم فإنه على الرغم من عدم وجود ذكر لها فى المصادر اليهودية ، وأيضا فى المصادر العربية ، غير أنه من السهل تصور كيفية دخولهم ، وذلك فى ضوء مذكرته التوراة من توصيات لهم بشأن مايجب عليهم أن يفعلوه بالشعوب والقبائل التى يوقعها سوء طالعها فى طريق من كان مثلهم جبانا ، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار كراهيتهم المتأصلة للعرب وحقدهم عليهم . ومن تلك الوصايا أو التعاليم : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن

أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالك ، بل عملت معك حربا فحاصرها . وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهايم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إهلك ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما (٢٢)

وعلى خلاف عادة اليهود في عصيان الله في معظم ما أمرهم به ، براهم يلتزمون — وبدقة متناهية — بما يزعمون أنه أمرهم به من إبادة الشعوب . ولتر ماذا فعلوا بمدينة بائسة اسمها عاي سقطت في أيديهم « وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان « عاي » في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعا بحد السيف حتى فنوا أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف ، فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا ، جميع أهل عاي (٢٣) » .

وفي هجومهم على مديان قالت التوراة تصف ما فعلوه « فنجلوا على مديان ، كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم .. وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع

(٢٢) تسمية ، الإصحاح ٢٠ الفقرات من ١١ إلى ١٨

(٢٣) يشوع ، الإصحاح ٨ ، فقرة ٢٤

بهايمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم
بمساحتهم وجميع حصونهم بالنار وأخلوا كل الغنيمة وكل النهب من
الناس والبهائم أتوا إلى موسى والعازار الكاهن وإلى جماعة بنى إسرائيل
بالسبي والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عربات موآب التى على أردن
أرجبا (٢٤).

وهكذا وجد السكان العرب الذين كانوا يقيمون فى الواحات
التي اقتحمها اليهود أنفسهم هدفا لهجوم كاسح شرس لم يبق ولم
يذر ، قضى على الجميع من رجال ونساء وأطفال ودمر المساكن
وأحرق الأسواق . ولم لا ؟ أليس هذا ما أوصتكم به التوراة ؟

وإذا كان قد حدث ، وترك اليهود بعض السكان أحياء ، فإن
السبب فى ذلك كان حاجتهم إلى من يعمل لهم دون مقابل أو بمقابل
ضئيل للغاية ، فهم ليسوا أكثر من عبيد يسخرونهم لأداء أشق
الأعمال ؛ لأنهم ، أى اليهود ، سادة العالم ، والشعوب كلها عبيد لهم
« لأنك شعب مقدس للرب إلهك وقد اختارك الرب لكى تكون له
شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (٢٥).

وكما قلنا ، فإنهم بدعوا بأقرب الناطق إلى فلسطين مثل « مقنا » و
« فذك » و « تبوك » ثم انتقلوا إلى « تيماء » فخير فوادي القرى
لينتهوا إلى « يثرب » . وفى هذه المناطق أقاموا الحصون القوية ؛
ليحتموا بها من هجمات البدو الذين كانوا يقيمون فى الجوار ، وليس

(٢٤) العدد ، الإصحاح ٣١ ، الفقرات من ٧ إلى ١٢

(٢٥) تثنية ، الإصحاح ١٤ ، فقرة ٢

صحيحاً ما ذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة من أن اليهود لم يكونوا أول من أقام الحصون في هذه المناطق ، وما استنتجته من أن السكان الذين كانوا هناك قبل ذلك لم يكونوا بَدَؤاً بحتاً ، ولا ماذكره المستشرق المتعصب « لامنس » من أن تلك الحصون بنيت على نحو أمثالها في اليمن . ذلك لأن عرب الحجاز ، في الجاهلية ، لم يعرفوا من وسائل الحماية غير الأسوار يقيمونها حول المدن القليلة التي كانوا يقيمون بها ، وذلك على خلاف عرب اليمن الذين كانوا قد عرفوا الحصون بالإضافة إلى الأسوار ، والمعروف أن عرب اليمن لم يهاجروا إلى الشمال وإلى الحجاز على وجه الدقة إلا في القرن الخامس الميلادي ، حيث يحتمل أن يكونوا قد أخذوا معهم فكرة الحصون الصغيرة التي تكلم عنها « لامنس » . أما اليهود فقد جاءوا من بلاد استخدمت الحصون منذ زمن بعيد ، بل إن اليهود أنفسهم كان لهم الكثير من الحصون في المناطق التي تسلطوا عليها من فلسطين ، فليس غريباً أن يقيموا مثلها في الحجاز ، وأن يجعلوها من القوة بحيث نصمد في وجه أى هجوم يشنه البدو ، أصحاب البلاد الأصليين .

ولا تعرف إلى الآن ملابسات اعتناق بعض العرب الديانة اليهودية ، فالمعروف أن اليهود يعتبرون الموسوية حكراً عليهم لا يجوز أن يعتنقها غيرهم فهم « شعب الله المختار » فكيف سمحوا لأولئك باعتناق اليهودية ؟ ولكن الثابت أن أعداداً غير محددة منهم تهودوا ، ومن هنا جاء الخلط بين من كانوا يهوداً خُلصاً ومن كانوا غير ذلك ، فظهر فيما بعد خلاف بشأن أصل القبائل اليهودية . فهناك من يرى أنهم يهود خلص ، وهناك من يرى خلاف ذلك ، وأنهم ، وبالذات

قريظة والنضير ، فخذان من قبيلة جذام العربية تهودوا . وهو ما ينفيه المستشرق « نولدكه » . وإن كان قد تأكد من الناحية التاريخية أنه كان هناك كثير من العرب الذين تهودوا . ومن الذين يرون أن الغالبية العظمى من يهود الحجاز أصلهم عرب المستشرق الروسي « بلياييف » الذى دلى على ذلك بأن بعضهم أجاد الشعر فى الجاهلية ، بل ونظمه ، كما أن تنظيمهم القبلى والعشائرى لا يختلف عن التنظيم العربى .

ولكن هذا الذى ذهب إليه « بلياييف » ليس صحيحا ، فليس هناك شك فى أن بعض العرب اعتنقوا اليهودية لأسباب مختلفة منها رغبتهم فى التقرب إلى اليهود باعتبارهم سادة ، ومنها أيضا ضيق البعض بعبادة الأوثان واقتناعهم بفكرة الإله الواحد التى تقوم عليها اليهودية وهؤلاء وأولئك كان عددهم قليلا .

ولكن الراجح أن قريظة والنضير وبنو قينقاع هم من اليهود الخالص ، فقد كان يطلق على القبيلتين الأوليين « الكاهنان » مما يبين أن اليهود كانوا يعرفون نسلهم ويشددون على تسلسلهم ، ونرى الشئ نفسه من أن صفية النضيرية التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم توصف بأنها من آل هارون ، وهو ما ذكره ابن سعد فى طبقاته . كذلك فإن القرآن الكريم خاطب اليهود على أنهم بنو إسرائيل ، مما يوحى بأكبر قدر من الوضوح بأنه كان يعتبرهم السلالة الصحيحة للإسرائيليين القدماء ، وعلى ذلك لابد أنه كان هناك إلى جانب العرب الذين تهودوا ، سلالة من اليهود بالمعنى الصحيح ،

والواضح فى الحقيقة أنه لولا وجود سلالة كهذه لما كان هناك أقوام اعتنقوا اليهودية .

كذلك فقد حرص بعض المؤرخين المسلمين على وصف اليهود باعتبارهم من أسباط بنى إسرائيل ، فابن كثير يقول عن بنى قريظة إنهم من بعض أسباط بنى إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما . وهو المتيقن بالنسبة ليهود خير أيضا ، فقد كانوا يتكلمون العبرية فيما بينهم ، فضلا عن العربية التى كانوا يتكلمون بها مع العرب ، أو أمامهم ، وذلك على خلاف العرب المتهودين الذين لم يكونوا يعرفون العبرية . وكان عدد قليل من العرب الذين لم يهودوا يتكلمون العبرية منهم عبد الله بن عتيك قائد المجموعة الفدائية التى تطوعت لقتل أبى رافع زعيم خير ، وهو مايسر له الدخول إلى الحصن للقيام بمهمته .

كذلك فإن اليهود كانوا يكتبون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبرية ، وليس بالعربية ، فكان يرد عليهم بالعبرية أيضا . فقد أخرج الترمذى عن زيد بن ثابت أنه قال : أمرنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن أتعلم كتاب يهود ، وقال : وإنى والله ما آمن يهود على كتابى . قال فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليهم قرأت له كتابهم (٢٦) . وهذا دليل آخر على أنهم كانوا يهودا ، ولم يكونوا عربا يهودوا .

(٢٦) جامع الترمذى — باب فى تعليم السريانية من أبواب الاستعذان والأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما يهود اليمن ، فإن الثابت أنهم عرب تهودوا . وتذكر الروايات العربية وكذلك المدونات اليونانية والرومانية والحبشية القديمة أن ملكا من ملوك حمير اسمه « تبان أسعد أبو كرب » مرّ في إحدى غزواته يثرب ، فجاءه حيران من أخبار اليهود فتكلما معه ، فأعجب بهما واتبع دينهما ، وأخذهما معه إلى اليمن ودعا قومه إلى اعتناق اليهودية فأجابوه ، وأن ذلك كان على ما يظن في القرن الخامس الميلادي . ويفسر البعض اعتناق عرب اليمن لليهودية بأنه كان نوعا من التحدى للدولة الأكسومية في الحبشة التي كانت تساند البيزنطيين ، الذين كانوا بدورهم يساندون سكان واحة نجران الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية ، وأخذوا يعملون على نشر النفوذ البيزنطي ، واستطاعوا بواسطة الأحباش ومبعوثهم أن يضمّنوا للتجار البيزنطيين وبحارة السفن الأمان في طريقهم إلى الهند .

ولكن لجواد على رأى مخالف لما قيل من أن أسعد كامل أبو كرب اصطحب حبرين يهوديين ، ويقول : إنه ليس هناك دليل على أنه أول من تهود من ملوك اليمن ، وإنما الثابت أن هذا الملك كان يتعبد لإله يسمى ذو سموت أو إله السماء .

كذلك فإن الدكتور حسين مؤنس يقول في تعليقه على كتاب العرب قبل الإسلام لجورجى زيدان : إنه لم يرد فيما ذكره مؤرخو الرومان أن ملك حمير — عندما غزا الأحباش اليمن كان يهوديا وإن بروكويوس اكتفى بالقول بأن النجاشي كان نصرانيا ، وإنه بلغه أن الحميريين كانوا يضطهدون النصارى ويعذبونهم ؛ ولذلك أرسل

أسطولا استولى على أرض حمير وأقام عليها ملكا حميريا نصرانيا ، وذكر أن بعض الحميريين كانوا على اليهودية ، أما بقيتهم فكانوا وثنيين على مذهب الهلنيين . أما الرواية الحبشية فتذهب إلى أن معظم أهل سبأ كانوا وثنيين ، وأن بعضهم كان يهوديا ، وأن اليهودية دخلت اليمن بعد تشتت اليهود عقب قضاء الرومان على دولة إسرائيل ، وهدم الإمبراطور طيطوس لمعبد سليمان في أورشليم . والمفهوم أن اليهودية دخلت اليمن عن طريق الحجاز .

وبدخول اليهودية إلى اليمن بدأ النزاع بين اليهود والمسيحيين ، ثم ما لبث أن اشتد وأخذ كلا الفريقين يكدل للآخر ، ومما ضاعف من كراهية اليهود للنصارى ما كان يصل إلى أسماعهم من أخبار الاضطهاد الذى أنزله الرومان بإخوانهم في مصر والشام ، إلى أن كان عهد الملك « ذى نواس » فبلغ اضطهاد النصارى أشده وتمثل في حادثة الأخدود التى ذكرها القرآن الكريم ، حيث وضع هذا الملك النصارى في أخدود أشعل فيه النار فأحرقهم . ودفعت هذه الحادثة الأحباش إلى غزو اليمن بحجة الدفاع عن النصارى ، فقصوا على الدولة الحميرية ، وضربوا اليهود ضربة شديدة حتى أفنواهم ، أو كادوا .

وفضلا عن الحجاز واليمن فقد كان هناك يهود في العراق ممن تخلفوا بعد أن سمح قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين عقب سقوط بابل ، وقد انضم إلى هؤلاء الذين تخلفوا آخرون ممن فروا من الاضطهاد الرومانى . وكما هو معروف عن اليهود فإن جماعاتهم هذه كلها كانت

على اتصال ببعضها البعض ، فلم يكن يهود يثرب معزولين عن يهود تيماء أو خيبر ، ولا هؤلاء كانوا منقطعين عن يهود العراق ومصر والشام . وقد يتساءل البعض عن السبب الذى جعل اليهود يختارون مناطق مثل وادى القرى ويثرب وتيماء وتبوك ومقنا فى الحجاز للإقامة فيها دون غيرها ، كما قد يتساءلون عما إذا كانت هذه الأماكن قد عرفت فى التاريخ قبل أن ينتقل اليهود إليها أم أنهم هم الذين أدخلوها التاريخ وجعلوا لها أهمية ، وللإجابة عن هذه التساؤلات نبدأ يثرب ، ثم نتبعها بالمناطق الأخرى .

يثرب ، أو المدينة :

اختلفت الآراء بشأن أصل اسم يثرب ، ومن هذه الآراء ما قاله المسعودى فى مروج الذهب أن يثرب الذى أطلق على المدينة قديما أصله اسم رجل يدعى يثرب بن قاتبة بن مهليل بن إرم بن عبيل ، نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه ، فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضا ببعض غوائل الدهر وآفاته . أما ابن منظور فله رأى آخر ، وهو أن يثرب من ثرب ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يقال للمدينة يثرب ، وسمّاها طيبة ، كأنه كره ثرب ؛ لأنه فساد عند العرب . وسواء كان أصل الاسم هو هذا أو ذاك ، فإن الثابت فى الحالين أن العرب هم أول من أقام فى هذه المنطقة وعمرها وأطلقوا عليها الاسم الذى عرفها به الناس ، وهذا منطقي ؛ فهى تقع فى بلادهم ، فى حين أن اليهود طرعوها عليها فى زمن لاحق .

أما لماذا استوطن اليهود يثرب فلأنها تقع بواحة وفيرة المياه ، يزرع بها الكثير من الفواكه والحبوب ، فضلا عن موقعها الاستراتيجي الهام ، فهي تقوم في سهل ينحدر طفيفا نحو الشمال ، ويحدها من الشمال والغرب جبل أحد وجبل عير ، على بعد حوالى أربعة أميال ، وهما نتوءان خارجيان من السلسلة التي يتكون منها الحد الفاصل بين مرتفعات بلاد العرب والأرض الساحلية المنخفضة (مهمامة) .

ويحد السهل من الغرب والشرق حرتان ^(٢٧) أو لابتان وهما مناطق جرداء مفروشة بالبازلت الأسود ، ولكن الحرتان الشرقيتان تقعان على مسافة أبعد ، وبينهما وبين المدينة قطع أوفر خصبا ، بحيث إن الحد الشرقى للسهل يتكون في الحقيقة من صف من تلال سوداء منخفضة ، وفي الجنوب يمتد السهل إلى أبعد ما يصل إليه البصر .

والصورة التي يكونها المرء في خياله عند قراءته لما كتبه المؤرخون وأصحاب كتب السيرة تظهر فيها المدينة (يثرب) كما لو كانت أحياء يقيم اليهود في بعضها ، ويقيم العرب في البعض الآخر . وربما ساعد على رسم الصورة على هذا النحو ما هو شائع اليوم من إطلاق وصف الحى على أجزاء من المدن لا يفصلها عن بعضها سوى طريق أو حتى حارة ضيقة . في حين أن الحال كان خلاف ذلك في المدينة (يثرب) ، التي كانت أحيائها منفصلة بعضها عن بعض بما يصل إلى ثلاثة أميال وأحيانا أكثر من ذلك .

(٢٧) الحرار : جمع حره ، والحره أرض ذات حجارة سود عمرة كأنما احترقت . ويقول الحيولولوجيون إنها احترقت بفعل الراكين .

ومما ذكرته الموسوعة الإسلامية الميسرة أن المدينة لم تكن منذ البداية الأولى بلدة نظامية ، وإنما كانت مجموعة من البيوت والأكواخ تحيط بها البساتين والحقول المزروعة ، وكان سكانها ممن يشتغلون بالزراعة ؛ ولهذا أطلق عليهم الأعراب اسم « النبطه » من قبيل الأزدراء . هذه المستوطنات المتفرقة لم تصبح تجمعات على هيئة مدينة إلا بالتدريج ، وإن امتدت برغم ذلك نحو الشمال مسافة أبعد مما وصلت إليه البلدة المتأخرة .

والمدينة التي قامت بهذه الطريقة لم يكن بها سور ، بحيث إن وسائل الدفاع عنها كانت أحراشا كثيفة من أشجار النخيل والبساتين التي تحيط بالبيوت . وكانت أقل كثافة سكانية على الجانبين الشمالي والغربي ؛ لهذا كانا أكثر الأجزاء تعرضا لهجمات الأعداء . وكانت الحصون الصغيرة التي كان العرب يسمونها أطما وجمعها آطام ، أو أجما والجمع آجام ، التي أقيمت بأعداد كبيرة — تشكل بديلا عن السور ، وكان في إمكان السكان أن يلجئوا إليها في أوقات المتاعب

وهناك خلاف بشأن التاريخ الذي نشأت فيه يثرب ، ولكن الراجح أن أول من نزل بمنطقة يثرب هي قبيلة « عييل » العربية التي أهلكها السيل المسمى بسيل « الجحفة » وعييل يعود أصلها إلى « العماليق » و « جرهم الأولى » . والعماليق من العرب العاربة الذين يسبقون في الوجود العرب المستعربة ، أي أبناء إسماعيل عليه السلام وأحفاده . وعلى ذلك فإن تاريخ يثرب يرجع إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، أي إلى ما قبل ميلاد موسى عليه السلام بأكثر من

خمسمائة عام . ويقول الأستاذ أمين مدنى : إن العماليق الذين سكنوا يثرب كانوا خليطا من بطون « عاد » و « ثمود » وخلقاتهم من قبائل « لحيان » و « دادان » ، وغيرهما من القبائل فى شمال الحجاز .

ومما قاله الأصفهاني فى هذا الشأن ، أن ساكنى المدينة فى أول الدهر ، قبل بنى إسرائيل — كانوا قوما من الأمم الماضية يقال لهم العماليق ، وكانوا قد تفرقوا فى البلاد ، وكانوا أهل عز وبغى شديد ، فكان ساكنو المدينة منهم بنو هف ، وبنو سعد ، وبنو الأزرق ، وبنو مطروق . وكان ملك الحجاز منهم رجلاً يقال له الأرقم ، ينزل ما بين تيماء إلى فذك ، وكانوا قد ملئوا المدينة ، ولهم بها نخل كثير وزروع ، ثم يذكر الأصفهاني قصة الجيش الذى بعث به موسى بن عمران للقضاء على العماليق .

فإذا كان اليهود قد جاءوا إلى الحجاز فى القرن الأول أو الثانى الميلادى وهو الراجح على ما ذكرنا سابقا — فمعنى ذلك أنهم دخلوا إلى يثرب وفيها اللحيانيون ، حيث ذكر الكاتب الرومانى « ييلنوس » أن بطونا منهم كانت متشرة بين ينبع وأيلة ، وفى داخل البلاد وفى العلا وهضبات خيبر ، وأنهم كانوا فى القرن الأول الميلادى خاضعين للأباط .

ومعنى هذا أن العرب الذين كانوا يقيمون فى يثرب عندما غزاها اليهود كانوا من اللحيانيين الذين كان عددهم قليلا للغاية ، وربما يكون السبب أن اليهود قتلوا منهم أعدادا كبيرة لكى تكون لهم الغلبة . ولقد ظلت لهم الغلبة حتى بعد أن جاء الأوس والخزرج إلى

يثرّب قادمين من اليمن في أعقاب تصدع سد مأرب .

وتاريخ انتقال الأوس والخزرج إلى يثرّب موضع خلاف هو الآخر ، فهناك رأى يربط بين تصدع السد وهجرة الأوس والخزرج ، وعلى ذلك تكون هذه الهجرة قد حدثت في عام ٥٢٠ ميلادية وهو تاريخ انهيار السد ، وهو رأى جواد على . أما الدكتور حسن إبراهيم فيقول : إن السد انهار سنة ٥٦٥ م . وهناك رأى آخر يذهب إلى أن هذه الهجرة حدثت قبل ذلك بأكثر من نصف قرن ، أى أنهم لا يربطونها بانهار السد وإنما بتصدعه ، ويستند أصحاب هذا الرأى إلى ما ورد في رواية « ابن إسحاق » التى نقلها لنا « ابن هشام » والتى تقول : إن الذين غزاهم « تبن أسعد » التبعى فى المدينة هم الأوس والخزرج . ولما كانت هذه الغزوة قد حدثت بين عام ٤٠٠ م وعام ٤٢٠ م فمعنى هذا أن الأوس والخزرج كانوا يقيمون فى يثرّب قبل عام ٤٠٠ م وهو العصر الذى عاش فيه « تبن أسعد » . وللاستاذ أحمد أمين رأى ، وهو أن هجرة الأوس والخزرج إلى يثرّب حدثت حوالى عام ٣٠٠ م .

ويصف الأصفهاني هجرة الأوس والخزرج إلى يثرّب فيقول : فلما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب ، وهم الأزد ، قام رائدهم فقال ... ومن كان منكم يريد الراسخات فى الوحل ، المطاعم فى الحل فليلحق بيثرّب ذات النخل ، فكان الذين نزلوها الأوس والخزرج ، فلما توجهوا إلى المدينة ووردوها نزلوا فى صرار (موضع على قرب من المدينة) ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء (يباب)

من أرض لا ساكن فيه ، فنزلوا به ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها ، فكانوا مع أهلها ، فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق من المعاش ، ليسوا بأصحاب إبل ولا شاة ؛ لأن المدينة ليست بلاد نَعَمٍ ، وليسوا بأصحاب نخل ولا زرع ، وليس للرجل منهم إلا الأعذاق اليسيرة ، والمزرعة يستخرجها من أرض موات ، والأموال لليهود ، فلبثت الأوس والخزرج بذلك حيناً .

وكانت قريظة والنضير تتيهان على العرب ، بل والقبائل اليهودية الأخرى بنسبهما إلى الكاهنين ، وهما هارون والعازار ، وهذا يعنى المكانة الدينية الرفيعة وفى نفس الوقت التعصب المقيت . وهذا كعب ابن سعد القرظى يزهو ويفاخر بنسبه إلى الكاهنين فيقول :

بالكاهنين قررتم فى دياركم جما ثواكم ومن أجلاكم جَدُّها

وسواء أكانت هجرة الأوس والخزرج فى هذا التاريخ أو فى ذاك فإن الثابت أنهم حين نزلوا يثرب لم يكونوا أهل نَعَمٍ وشاء وخيل وأموال ، وإنما كان ذلك لليهود فعاشوا بين اليهود وبالضواحي والقرى فى شظف من العيش وهوان وذل ؛ إذ تحكم اليهود فيهم وحكموهم . وأصبح الأوس والخزرج موالى لهم . وكان اليهود يستمدون قوة إضافية من الفرس ، حيث إن هذا الجزء من شمال بلاد العرب كان آنذاك تحت حكمهم ، وذلك تمشياً مع السياسة اليهودية المعتادة فى الإبقاء على علاقات ودية مع فارس بعد ماأنزله بهم الرومان من اضطهاد وتعذيب .

وهكذا عامل اليهود العرب أسوأ معاملة ، فلم يكتفوا بالاستيلاء على أراضيهم وسلب أموالهم والتضييق عليهم في العيش والزامهم بأداء الخراج ، وإرغامهم على السكنى في مناطق مجذبة ، بل أضافوا إلى ذلك الاعتداء على بناتهم . ويروى ياقوت في معجمه قصة الملك اليهودي المسمى بـ (الفطيون) فيقول :

وكانت اليهود والأوس والخزرج يدينون له ، وكانت له فيهم سنة ألا تزوج امرأة منهم إلا أدخلت عليه قبل زوجها حتى يكون هو الذي يفتضها ، إلى أن زوجت أخت لمالك بن العجلان بن زيد السلمي الخزرجي ، فلما كانت الليلة التي تهذى فيها إلى زوجها خرجت على مجلس قومها كاشفة عن ساقها وأخوها في المجلس ، فقال لها قد جئت بسوءة بخروجك على قومك وقد كشفت عن ساقك قالت : الذي يراد بي الليلة أعظم من ذلك ؛ لأننى أدخل على غير زوجي ، ثم دخلت إلى منزلها ، فدخل إليها أخوها وقد أرمضه قولها فقال لها : هل عندك من خبر ؟ قالت : نعم ، فماذا ؟ قال : أدخل معك في جملة النساء على الفطيون ، فإذا خرجن من عندك ودخل عليك ضربته بالسيف حتى يرد ، قالت : افعل ، فتزيا بزى النساء وراح معها ، فلما خرج النساء من عندها دخل الفطيون عليها ، فشد مالك بن العجلان عليه بالسيف وضربه حتى قتله ، وخرج هاربا حتى قدم الشام ، فدخل على ملك من ملوك غسان يقال له أبو جبيلة ، وفي بعض الروايات أنه قصد اليمن إلى تبع الأصغر بن حسان فشكا إليه ما كان من الفطيون وما كان يعمل في نسائهم ، وذكر له أنه قتله وهرب ، وأنه لا يستطيع الرجوع خوفا من اليهود ، فعاهده أبو

جبيلة ألا يقرب امرأة ولا يمس طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير إلى المدينة ويذل من بها من اليهود ، وأقبل سائرا من الشام في جمع كثير مظهرا أنه يريد اليمن حتى قدم المدينة ونزل بذي حرض ، ثم أرسل إلى الأوس والخزرج أنه على المكر باليهود عازم على قتل رؤسائهم ، وأنه يخشى متى علموا بذلك أن يتحصنوا في آطامهم (حصونهم) وأمرهم بكتان ما أسره إليهم ، ثم أرسل إلى وجوه اليهود أن يحضروا طعامه ليحسن إليهم ويصلهم ، فأتاه وجوههم وأشرفهم ومع كل واحد منهم خاصته وحشمه ، فلما تكاملوا أدخلهم في خيامه ثم قتلهم عن آخرهم ، فصارت الأوس والخزرج من يومئذ أعز أهل المدينة وقمعوا اليهود وسار ذكرهم وصار لهم الأموال والآطام .

وكما كان إذلال اليهود للعرب شديدا وقاسيا ، فإن فرحتهم بهزيمتهم كانت شديدة ، وكعادتنا الآن عندما نحرز نصرا ، مهما كان ضئيلا ، نغنى ونهلل ، فكذلك فعل الأوس والخزرج ، فقد تبارى شعراؤهم في نظم الأشعار التي تعبر عن الزهو والفخر بما فعله أبو جبيلة . فقال الرمي وهو عبيد بن سالم بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف من الخزرج يمدح أبا جبيلة الغساني :

لم يقض دينك في الحسا	ن وقد غنيت وقد غنينا
الراشقات المرشقا	ت المجازيات بما جزيئا
أمثال غزلان الصرا	ثم يأتزون ويرتدينا
الربط والديجاج	والزرد المضاعف والبرينا
وأبو جبيلة خير من	يمشى وأوفاهم يميننا

وقال الصامت بن أصرم النوفلى يذكر قتل أى جيلة لليهود :

سائل قريظة من يقسم سيبها ^(٢٨) يوم العريض ومن أفاء المغنا
جاءتهم الملحاء يخفق ظلها وكتيبة خشناء تدعو أسلما
عمى الذى جلب الهمام لقومه حتى أحل على اليهود الصيلما
أما اليهود فقد أخذوا يكون عزهم الذى ولى أو كاد ويرثون
قتلاهم ، وها هى امرأة منهم تدعى سارة القرظية قالت فى رثاء من
قتلهم أبو جيلة :

بنفسى أمة لم تغن شيئا بذى حرض تعفها الرياح
كهول من قريظة أتلفتها سيوف الخزرجية والرماح
رزئنا والرزية ذات ثقل يمر لأهلها الماء القراح
ولو أربو بأمرهم لجالت هنالك دونهم جأوا رداح

ثم انصرف أبو جيلة راجعا إلى الشام ، وقد ذلل الحجاز والمدينة
للأوس والخزرج ، فعندها تفرقوا فى عالية المدينة وسافلتها ، فكان
منهم من جاء إلى القرى العامرة فأقام مع أهلها قاهرا لهم ، ومنهم من
جاء إلى عفا من الأرض لا مساكن فيه فبنى فيه ونزل ، ثم اتخذوا بعد
ذلك القصور والأموال والآطام . ويقول الدكتور حسن إبراهيم : إن
ذلك كان فى نهاية القرن الخامس الميلادى . وهكذا كانت المرأة
العربية الحريصة على عفتها من أن يدنسها يهودى — السبب فيما نزل

(٢٨) يعنى بقوله : « من يقسم سيبها » نسوة سباهن أبو جيلة من بنى قريظة ، وكان رآهن
فأعجبهن ، وأعطى مالك بن العجلان منهن امرأة .

باليهود ، وأدى إلى القضاء على بعض قوتهم ولكن ليس كلها .
قال أبو هلال أحد بنى المعل : إنهم ، أى العرب ، أقاموا زما
ما صنع أبو جبيلة ، ويهود تعترض عليهم ، وتناوئهم ، فقال مالك
العجلان لقومه والله ماأثخنا يهوداً غلبة كما نريد ، فهل لكم أن أة
لكم طعاما ، ثم أرسل فى مائة من أشراف من بقى من اليهود ،
جاءونى فاقتلوهم جميعا ، فقالوا نفعل ، فلما جاءهم رسول م
قالوا : والله لا نأتيهم أبدا ، وقد قتل أبو جبيلة منا من قتل ، فقال
مالك : إن ذلك كان على غير هوى منا ، وإنما أردنا أن نمحو
وتعلموا حالكم عندنا ، فأجابوه ، فجعل كلما دخل عليه رجل ،
أمر به مالك فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلا ، ثم إن ر
منهم أقبل حتى قام على باب مالك فسمع فلم يسمع صوتا فقا
أرى أسرع وِرْد وأبعد صدر (يريد أن من دخل لا يرجع) فر
وحذر أصحابه الذين بقوا ، فلم يأت منهم أحد ، فقال رجل
اليهود لمالك بن العجلان :

فسفها قيلة أحلامها ففيمن بقيت وفيمن تسو
فقال مالك :

فإنى امرؤ من بنى سالم بـ من عوف وأنت امرؤ من
قال : وصورت اليهود مالك بن العجلان فى ييمهم وكنائس
فكانوا يلعنونه كلما دخلوها . فقال مالك فى ذلك قوله :

تحامى اليهود بتلعائها تحامى الحمير بأبـ
فماذا على بأن يلعنوا وتأتى المنايا بإذ

قال : فلما قتل مالك من يهود مَن قتل ذلوا ، وقل امتناعهم ، وخافوا خوفا شديدا ، وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض ، كما كانوا يفعلون قبل ذلك ، ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه من العرب يحتسى بهم .

وللأسف فإن ماكان يفعله الفطيون ظل سبة في جبين سكان المدينة (يثرب) حتى بعد أن ساد الإسلام بمدة طويلة . ففى هجاء ابن قنبر لمسلم بن الوليد ردا على هجاء هذا لقريش وفخره بالأنصار قال ابن قنبر فى سكان المدينة :

فعزوا وقد كانوا وفطيون فيهمُ من الذل فى باب من العز مبهم
يسومهم الفطيون مالا يسامه كريم ومن لا ينكر الظلم يظلم
وقال فى قصيدة أخرى :

فاخر الغر من قريش بإخوا	ن خنازير يثرب والقروود
يتولى بنى النضير ويدعو	بهم الفخر من مكان بعيد
وبنى الأوس والخزارج أهل الذ	ل فى سالف الزمان التليد
إذ رضوا بافتضااض فطيون منهم	كل بكر ربا الروادف رود
وبنوعمها شهود لما يف	عل فطيون قبحوا من شهود
خلف باب الفطيون والبعل منهم	لا يذى غيره ولا بنجيد
فإذا ما قضى اليهودى منها	نحبه قنعوا بخزى جديد

وإذا كان اليهود قد فقدوا الملك ، إلا أنهم لم يفقدوا غيره من عناصر القوة ؛ فقد احتفظوا بكل أراضي المدينة الخصبة تقريبا ملكا

لهم ، كما كانت التجارة في أيديهم ، وكذلك الصناعات القليلة ، ومن بينها صناعة الأسلحة مثل السيوف والخنجر ، وصياغة الذهب التي كانت صناعتهم الرئيسية ، فضلا عن المال الذي كانوا يقرضونه للعرب المحتاجين بالربا الفاحش . ولعل ما قاله أحد زعماء الخزرج لقومه يبين لنا سوء الأوضاع التي كان العرب يعيشون فيها . فقد قال عمرو بن النعمان البياض لأهله : إن أباكم أنزلكم منزل سوء بين سبخة (أرض ذات نز وملح) ومفازة (الفلاة لا ماء فيها) وأنه والله لا يمس رأسي غسل حتى أنزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل . وفي هذا القول دليل على أن العرب كانوا محرومين من الماء العذب وكريم النخل فضلا عن عدم صلاحية البيئة للإقامة .

وعمر بن النعمان هو تاني عرني بعد مالك بن العجلان يدرك أن اليهود دخلاء مغتصبون ينعمون بما اغتصبوه من العرب من أرض وثمار ، فأقسم أن يمنع ذلك ، كما سبق للمالك أن منع الفطيون من اغتصاب النساء العرييات . هذا على الرغم من أن العرب كانوا قد حسنوا ظروفهم بعض الشيء في أعقاب هزيمة أبو جيلة لليهود ، فقد أقام الخزرج في مركز البلد الذي تشغله المدينة « الحديثة » وإلى الغرب والجنوب منهم كانت تعيش قبائل أخرى من الخزرج أيضا ، في حين امتدت أرض الحارث إلى الشرق . أما الأوس — وكانوا يضمون أسرات عدة أيضا — فكانوا يقيمون في جنوب وشرق إخوانهم . وكان بنو الحارث يفصلون أهل الشمال الشرق عن أقربائهم .

أما اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة فقد كانوا يقيمون خارج المدينة فيما نسميه الآن « ضواحي » المدينة . في مناطق ذات أهمية استراتيجية وطبيعة حاکمة . فبنو قريظة مثلا كانوا يقيمون على أميال من المدينة في حصونهم القوية التي كانت تقع على ربوة نشرف على المدينة من الشرق ، وقريب منها تقع أراضيهم التي كانوا يزرعونها . وكانت حصون اليهود مغلقة في وجه العرب يجهلون تماما ما بداخلها من سلاح وعتاد ، كما أنه كان لديهم مقاتلون يتميزون بالقوة الجسمية والمهارة في استخدام السلاح . وكان العرب يهابونهم ، لا عن تجربة وخبرة ، فهم لم يخوضوا حربا ضدهم منفردين ، وإنما كان اليهود يحرصون على أن يكونوا مع أحد الفريقين ، الأوس أو الخزرج ، ضد الفريق الآخر ، وغالبا ماكانوا يختارون الفريق الأقوى ، حتى إذا انتصر نسبوا لأنفسهم الفضل في انتصاره ، أما إذا هزم فإذا لم يلقوا عليه بالمسئولية عن الهزيمة ، فإنهم على الأقل يتقاسمونها معه ، وفي أغلب الأحوال فإنهم كانوا يتحاشون أن تلحق بهم خسائر ، أما المكاسب فإنهم كانوا أول من يبادر إلى قطف ثمارها . وحينئذ كان العرب يتوقفون عند حد معين ، طالما أنهم قد انتصروا فإنهم ، أى اليهود ، كانوا يصرون على المضي حتى النهاية ، فينكسون بالطرف الذى لحقت به الهزيمة ، يعملون في فلوله التقتيل ، وينهبون المساكن ، ويسبون النساء ، أو يعتدون عليهن منظاهرين بالحماس للطرف الغالب وبالرغبة الشديدة في الانتقام له .

وعلى الرغم من ضآلة المكاسب التي حققها العرب نتيجة لغزوة

أبى جيبيله لنههود ، فإن هولاء أبوا أن يرصخوا نالأمم انوافع ويعترفوا لنعرب بما استردوه من حقوق ضئيلة ، وإنما أخذوا يسعون لبث الفرقة بين العرب ، فيؤلبون الأوس على الخزرج ، ويحرضون الخزرج على الأوس ، ويقفون مع هؤلاء تارة ومع أولئك تارة أخرى ، وغرضهم الحيلولة دون زيادة قوة إحدى القبيلتين على حساب القبيلة الأخرى ، حتى لا تشكل خطراً عليهم ، وإنما السعى إلى إضعاف الجميع حتى يكونوا هم وحدهم الأقوياء ، فإذا سنحت لهم فرصة انتهزوها للانقضاض على الفريقين وإخضاعهما لسلطانهم مرة أخرى . ومن هنا كانت كثرة الوقائع بين الأوس والخزرج التي تكبد فيها الفريقان أفدح الخسائر ، في الأرواح والممتلكات .

وفي حرب سمير التي نشبت بين الأوس والخزرج عقب زوال ملك اليهود بفضل مساعي مالك بن العجلان وجهود أبو جيبيلة ، انضم يهود بنى قريظة وبنى النضير إلى الأوس ضد الخزرج الذين كان مالك بن العجلان منهم . وقد استمرت هذه الحرب عشرين عاماً ، وانتهت بالصلح بين الجانبين . ثم بعد ذلك بذل اليهود تأييدهم للخزرج ضد الأوس ، وذلك في الحرب التي نشبت بينهما بسبب قيام أحد اليهود بركل عري في مؤخرته ، وكان هذا العري ضيفاً على أحد أشراف الأوس واسمه حاطب بن قيس ، فلما أصابته الركلة استغاث بمضيفه الذي أقبل مسرعاً ، ولما علم بما فعله اليهودى ضربه بسيفه ضربة فلق بها هامته ، وهكذا قامت الحرب بين الأوس والخزرج ، وهزم الخزرج الأوس .

ولكن اليهود عادوا فأنحازوا إلى الأوس مرة أخرى ، فهم لا يرغبون أن يروا فريقا من العرب يزداد قوة ؛ لما في ذلك من خطر عليهم . فلما رأى الخزرج ذلك أنذروا اليهود وهددوهم إن هم استمروا في مساندة الأوس ، فرد عليهم اليهود بما يتضمن الوعد بالكف عن نصره الأوس ، ولكن الخزرج لم يكتفوا بذلك ، وطلبوا منهم أن يودعوا لديهم رهائن من أبنائهم لكي يضمنوا عدم مساعدتهم للأوس ، فبعثوا إليهم بأربعين غلاما منهم ، ففرقهم الخزرج في دورهم ، ومكنوا بذلك مدة . ولكن حدث أن رجلا من الخزرج يدعى يزيد بن فسحم شرب يوما فسكر فتغنى بشعر يذكر فيه موضوع الرهائن ، وعرض باليهود قائلا :

هلم إلى الأحلاف إذ رُقْ عظمهم	وإذ أصلحوا مالا لجذمان ضائعا
إذا ما مروا منهم أساء عمارة	بعثنا عليه من بنى العير جادعا
فأما الصريح منهم فتحملوا	وأما اليهود فاتخذنا بضائعا
أخذنا من الأولى اليهود عصابة	لغدرهم كانوا لدينا ودائعا
فذلوا لرهن عندنا في حبالنا	مصانعة يخشون منا القوارعا
وذاك بأنا حين تلقى عدونا	نصول بضرب يترك العز خاشعا

فبلغ قوله قريظة والنضير فغضبوا ، وتوعد كعب بن الأشرف الخزرج ، وسعى في نأليب الأوس عليهم ، فلما سمعت الخزرج بذلك قتلوا كل من عندهم من الرهن من أولاد قريظة والنضير . وعندئذ اجتمعت الأوس وقريظة والنضير على حرب الخزرج فاقتتلوا قتالا شديدا ، وسمى ذلك اليوم يوم الفجار الثاني لقتل الغلمان ، ويقول

ابن الأثير : إن الخزرج إنما قتلوا الرهائن بسبب غدر اليهود فأحرى أن يسمى الفجار لغدر اليهود لا العرب .

أما آخر حرب بين الأوس والخزرج فتسمى يوم بعاث . وكان السبب في وقوعها أن قريظة والنضير جددوا العهد مع الأوس على المؤازرة والتناصر ، واستحكم أمرهم وجدوا في حربهم ، ودخل معهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا ، فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وراسلت حلفاؤها من أشجع وجهينة ، كذلك راسلت الأوس حلفاءها من مزينة ، ومكثوا أربعين يوما يتجهزون للحرب ، والتقوا ببعاث ، وهى من أعمال قريظة ، وتحلف عبد الله بن أبى بن سلول فيمن تبعه من الخزرج . وفي أول الأمر انهزم الأوس ومعهم اليهود ، ثم مالبت الدائرة أن دارت على الخزرج ، فقتل قائدهم ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، ولكن أحدهم صاح : يامعشر الأوس ، أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب ، فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم ، ولكن اليهود استمروا في سلب الخزرج انتقاما وتشفيا .

وأقسم كعب بن أسد القرظى ليزلن عبد الله بن أبى ؛ ظنا منه أنهم اشترك في الحرب إلى جانب إخوانه الخزرج . ولم يكف إلا بعد أن ثبت له أن عبد الله بن أبى لم يشترك في الحرب .

وكان يوم بعاث آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، فقد جاء الاسلام فجمع بينهما ووجد كلمتهما ، وضيّع على اليهود

الفرصة نهائيا ، بل وأصبح المسلمون يحاسبونهم على أى إساءة تقع منهم في حق الآخرين .

مستوطنة تيماء

أما المناطق الأخرى غير (يثرب) فإنها لم تكن تقل عنها خصوبة وقيمة من الناحية الاستراتيجية والموقع الاقتصادي ، ومنها تيماء التي ذكرت المراجع أنها تقع في واحة كثيرة الماء في شمالي الجزيرة العربية على مسيرة أربعة أيام إلى الجنوب من دومة الجندل ، ويقول المقدسي : إنها على مسيرة ثلاثة أيام من الحجر ، وأربعة أيام من وادي القرى ، وهي في غور طوله ميلان ، وعرضه خمسمائة ياردة ، وكانت تيماء محطة هامة للقوافل . ويقول الأستاذ محمد عزة دروزة : إن تيماء كانت ملتقى قوافل التجارة تغدو وتروح بين الجنوب والشمال وإن أهلها كانوا ماهرين في الأعمال التجارية ، وإنهم دفعوا الجزية لتغلات بلاشر ؛ فدية ورغبة في الاستمرار على نشاطهم التجاري بعد أن وقعت البلاد الشمالية تحت سيطرته . والسبب في غزو تغلات بلاشر لتيماء أن سمى ملكة عريبي انضمت إلى تحالف كبير في عام ٧٣٢ ق.م ضم دولة سبأ وملك دمشق وواحة تيماء الهامة ، وقبائل أخرى قرب تيماء وديدان (العلاء) ضد تغلات بلاشر الثالث الذي كان يطمع فيما يعود على هذه المناطق من ثروة نتيجة لامتداد ماكان يسمى بـ (طريق البخور) خلالها ، وكان هذا الطريق يبدأ من البحر الأبيض عند غزة ، ومن دمشق عن طريق معان

وديدان ويثرب إلى رجمة (نجران) وسبأ ، فما كان منه إلا أن شن حربا عليها فأخضعها بما فيها تيماء .

ويزعم اليهود أن أشعيا تنبأ بما سيحدث للعرب في تلك الحرب ، ففى الإصحاح ٢١ من سفر أشعيا يقول : « وحى من جهة بلاد العرب . فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانين . هاتوا ماء للملاقة العطشان يا سكان واحة تيماء وافوا الهارب بنخبه . فإنهم من أمام السيوف قد هربوا . من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب . فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيذار وبقية عدد قسى أبطال بنى قيذار تقل لأن الرب إله إسرائيل قد تكلم » .

وكانت اليهود تسمى العرب من أبناء إسماعيل باسم قيذار الذى قيل إنه أحد أبناء إسماعيل ، ونلاحظ كراهية أشعيا الشديدة لهم ، وسروره بما سيحقق بهم من هزيمة . وكان ذلك فى القرن الثامن قبل الميلاد .

كذلك غزا الملك بوبؤد ملك بابل تيماء عام ٥٥٠ ق.م وحكمها ثمانى سنوات وأنفذ حملة وصلت إلى يثرب . وشيد قصرا ومعبدا فى تيماء وجعل منها مركزا لديانة عريقة فى القدم هى عبادة الإله سين رب القمر الآرامى .

وفى سنة ٣٧٥ ميلادية خضعت تيماء للملك الحبشى المدعو « عيزان » ولكن ذلك لم يدم طويلا ؛ إذ مالبت أن خضعت للفرس .

وكان شأن تيماء كشأن غيرها من الواحات العربية الخصبة التي
نزع إليها اليهود من فلسطين أيام الاضطهاد الروماني ، غير أن تيماء
اجتذبت أعدادا أخرى من اليهود الذين كانوا يقيمون في مناطق
أخرى من الحجاز لا تتمتع بما كانت تتمتع به فنزحوا إليها وأقاموا
فيها .

ويبدو أنهم كانوا مثل يهود المدينة (يثرب) يسيئون معاملة
العرب ، وإن كان هؤلاء — على ما يبدو — أقل حمية من إخوانهم
عرب يثرب ، حيث اكتفوا بالشكوى ولا يحاولون أن يحطموا نير
التسلط اليهودي ، وها هو أحدهم ينظم شعرا يعبر فيه عن معاناته هو
وإخوانه من ظلم اليهود فيقول :

إلى الله أشكو، لا إلى الناس، أننى تيماء تيماء اليهود غريب
وأنى بتهباب الرياح موكل طروب إذا هبت على جنوب
وإن هب علوى الرياح وجدتني كأنى لعلوى الرياح لسيب
فالرجل ، كما نلاحظ ، ضائع في بلده بسبب تعنت اليهود واستغلالهم
ووقاحتهم

وكما فعل يهود يثرب ، لما علموا ببعثة الرسول صلى الله عليه
وسلم ، فعل يهود تيماء ، فقد ناصبوه العداء وارتحوا يتآمرون مع بنى
عمومتهم في يثرب وخبير ووادي القرى وقمنا وتبوك وفدك يريدون
القضاء عليه ، ولكن شاءت إرادة العلى القدير أن يقضى عليهم ، وأن
تخلص الحجاز واليمن وكل الجزيرة لأبنائها العرب كما ستخلص
فلسطين إن شاء الله .

مستوطنة تبوك

وتبوك من الواحات العامرة التي استوطنها اليهود أيضا ، وهي تقع على مسيرة أربعة أيام من الحجر ، واثنى عشر يوما من يثرب ، وهي واقعة على نَشْرِ في سهل رملي وبها بئر صالح ، ومن الراجح أن يكون هو الوارد ذكره في القرآن الكريم . وكانت تبوك أيام النبي صلى الله عليه وسلم على الحدود الشمالية لبلاد العرب وتبدأ بعدها حدود الدولة البيزنطية (دولة الروم) . وكان يهود تبوك يُتَكَلَّمُونَ بمن يقيم بين ظَهْرَانِيهِم من العرب ، فلما ظهر الإسلام أخذوا يتآمرون ضده مع بنى عمومهم في المستوطنات اليهودية الأخرى ، وظنوا أن وجود تبوك على مسافة بعيدة من يثرب وقربها من الحدود البيزنطية سوف يمنع المسلمين من غزوها وتأديبهم وكسر شوكتهم ، ولكن خاب فألهم ، فقد طالتهم أيدي المسلمين كما طالت بنى عمومهم في يثرب ثم في خيبر ووادي القرى .

مستوطنات أخرى

وهناك — فضلا عما تقدم ذكره من مستوطنات لليهود — كثير من الواحات والأقاليم التي اغتصبوها من العرب ، منها أذرح ، ومقنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، والجرباء ، وفدك .

وأذرح كانت في أطراف الشام من أعمال الشراة ، ثم من نواحي البلقاء . ويقول ياقوت : إن الوضاح قد أخطأ إذ قال إنها من فلسطين ، وإنما هي في قبلي فلسطين من ناحية الشراة . وجاء في

كتاب مسلم بن الحجاج أن بين أذرح والجرباء ، وهى مستوطنة
يهودية أيضا ، ثلاثة أيام ، بينهما ميل واحد أو أقل ؛ لأن الواقف فى
هذه ينظر هذه .

أما أذرعات التى نفى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم بنى
قينقاع ، فكانت تقع فى أطراف الشام بجوار أرض البلقاء وعمان ،
ينتسب إليها الخمر . ويقول ياقوت : إن العرب ذكرتها فى أشعارها ؛
لأنها لم تزل من بلادها فى الإسلام وقبله ، فقد قال امرؤ القيس :

ومثلك ييضاء العوارض طفلة لعوب تنسينى - إذا قمت - سربالى
تَنَوَّرُثُهَا من أذرعات وأهلها ييثر ، أدنى دارها نظرٌ عال
يريد أن يقول ، أى ياقوت ، إنها لم تكن يهودية أبدا ، وإنما
اغتنصها اليهود ، فلما استردها المسلمون عادت - كما كانت -
عربية .



كيف قضى المسلمون على المستوطنات اليهودية ؟

كيف قضى المسلمون على المستوطنات اليهودية ؟

كان اليهود فى يثرب قد سمعوا الشئ الكثير عن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن أظهر دعوته فى مكة ، فساورهم القلق ، ولكنهم حرصوا على التظاهر باللامبالاة ، باعتبار أن الأمر لا يعنيتهم ، وإنما يعنى العرب الذين أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يُسَقِّهِ أحلامهم ويُعَرِّضُ بآهتهم . واعتقد اليهود أن قريشا وبقيّة العرب سوف يتكفلون به ويقضون على دعوته فى المهد ، وبالتالي فلا يجب عليهم أن يتدخلوا لكيلا يؤدى ذلك إلى تعصب العرب للرسول لكناية فى اليهود الذين كانوا يُكُونون لهم كراهية شديدة .

ولكن موقف اليهود ما لبث أن تغير لما علموا بأن المسلمين يرمعون الهجرة إلى المدينة بعد الاتفاق الذى تم بينهم وبين وفد الأوس والخزرج ، ثم مجيء المسلمين بالفعل ، وفى أعقابهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعندئذ أدرك اليهود أن الخطر لم يعد بعيدا عنهم وإنما أصبح فى عُقْر دارهم ، وعلى الفور بدعوا ينشطون من أجل منعه ، وذلك بالتآمر مع كل من له مصلحة فى القضاء على الإسلام .

ولقد أخطأ المستشرقون والمؤرخون الغربيون ، حين تصوروا أن

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود ، عقب وصوله إلى المدينة ، وهو الموقف الذى اعتبروه مهادنا — قد تغير بعد ذلك لما اطمأن الرسول إلى قوته ووثق من صلابة وضعه . وهو تصور خاطيء بلا أدنى شك أوقعهم فيه التعصب .

ومما تجدر ملاحظته ، بالنسبة للغريين الذين يتصدون لدراسة الإسلام ، أن ملكة النقد تنشط عندهم بشكل مَرَضِيٍّ ، فيمضون يوجهون النقد إلى الإسلام ، وكأنما أوتوا علم المتقدمين والمتأخرين ، وفى ثقة تصل إلى درجة الغرور ، دون أن يقولوا لنا شيئا عما كان يجب على المسلمين أن يفعلوه . وهذا الداء الويل يظهر بوضوح أكبر إذا تعلق الأمر بموضوع له صلة باليهود حتى ليبدون لمن يقرأ لهم وكأنهم قد نصبوا من أنفسهم مدافعين عنهم . أما الحقيقة فهي خلاف ذلك تماما ، فإذا كان اليهود قد عُدُّوا وتُكَلِّ بهم بصورة بَشِيعَة ووحشية ، وبسبب وبدون سبب — فإن ذلك لم يقع لهم من أى شعوب كما وقع لهم من الشعوب الأوربية ، وفى مختلف حقب التاريخ ، ليس ذلك وحسب ، بل إن الغرب الذى يذوب رقة ويفيض إنسانية لم يبدل كل هذه الرعاية والحماية لليهود فى هذا القرن إلا من أجل أن يتخلص منهم ومن شرورهم وجشعهم واستغلالهم ، فلم يجد غير العرب ، وهم فى هذه الحالة المزرية من الضعف والتاخر ليرميهم بهم ، فلا إنسانية هناك ولا رقة ، وإنما هى المصلحة ولا شيء غيرها ، يبيع الغرب من أجلها القِيَمَ والمُثُلَ وكل الفضائل ، بل الأهل والولد إذا اقتضى الأمر .

ولا ندرى ماذا كانوا يريدون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل لكي يحظى برضائهم عن تصرفاته ؟ هل كانوا يريدون منه أن يبادر إلى التخلي عن الرسالة التي بعث من أجلها ويعتق اليهودية ؟ حتى هذا لم يكن سيجعلهم يرضون عنه ؛ لأنهم في الواقع لا يحبون اليهود ولا اليهودية ، وبالتالي فإنهم كانوا يريدون منه أن يعتنق النصرانية . ولقد صدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (١) .

لم يكن أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يوم هجرته إلى المدينة إلا أحد أمرين بالنسبة لعلاقته باليهود : الأول : أن يجلبهم عن المدينة دون سبب هام وواضح ، أما الثاني فإن يتركهم كما هم ، ويعمل على طمأننتهم والتحاور معهم ، لعلمهم يهودون ، أو على الأقل يكفون عن الكيد له . وبطبيعة الحال فإن أخذه بالأمر الأول كان — فضلا عما فيه من ظلم لا يرضى به الرسول صلى الله عليه وسلم — سيؤدي إلى مشاكل لا حصر لها : منها أن الأوس والخزرج كانوا حلفاء لليهود ، ولم يكن عدد الذين أسلموا من القبيلتين كبيرا بحيث يمكنهم أن يقفوا في وجه من لم يسلموا إذا تصدوا للرسول ليمنعوه من إجلاء اليهود . هذا بالإضافة إلى ما كان لدى اليهود أنفسهم من قوة عسكرية ذات شأن في حين لم يكن لدى المسلمين أية فكرة عن الحرب ، وبخاصة في تلك الظروف البالغة السوء ، حيث هاجروا من بلدهم مكة وليس

(١) سورة البقرة - الآية ١٢٠

معهم سلاح ولا عتاد ، بل ولا يملكون قوت يومهم بعد أن اغتصبت قريش كل ما كان لهم .

فالرسول ، إذن ، لم يهادن اليهود ترقبا لفرصة تسنح فينقض عليهم ، وإنما أراد أن يمنحهم الفرصة ليتفهموا الإسلام وليتعاملوا مع المسلمين بشكل مباشر لعلهم يقتنعون ثم يهتدون .

وكان من المنطقي ، بل ومن العدل أن يعامل الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود معاملة طيبة ، طالما أنهم لم يظهروا له العداء والكراهية وإن أبطنوها . ولا شك أنه كان يعلم ذلك ، ولم لا ؟ أليس بنى رسول يأتيه خبر السماء ؟ . ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن الآخرين — وبخاصة الأنصار من أوس وخزرج — لم يكونوا يعلمون ، فقد كان بعضهم واقعا تحت تأثير بنى قريظة ، والبعض الآخر واقعا تحت تأثير بنى النضير أو بنى قينقاع يرتبطون معهم بالعهود والوعود ، وكل فريق يحسن الظن بالآخر ، واليهود من جانبهم يبالغون في إظهار المودة والحب والرفقة مع هؤلاء وهؤلاء كسبا لتأييدهم ، وتحسبا لما سوف يحدث في المستقبل ، عندما يستفزون المسلمين فيرد عليهم هؤلاء فيجدون من حلفائهم من أوس وخزرج المؤازرة والتأييد . فماذا لو أن الرسول بادر اليهود بالعداء والطرود دون سبب ؟

ولن نتكلم هنا عن خضوع الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي والتزامه بما يجرى إبلاعه به بصدد اليهود ، طالما أن المستشرقين والمؤرخين الغربيين يرفضون الاعتراف بأن القرآن الكريم هو كلام

الله الذى حمّله جبريل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقولون إنه كلامه . إذ لو كانوا يؤمنون ما قالوا ذلك الذى قالوه ، وما وجدنا بأنفسنا حاجة للرد عليهم ، ولكنه التعصب !!

وستتابع فيما يلى علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود منذ أن وصل إلى يثرب (المدينة) وما طرأ على هذه العلاقة من تغير انعكس على مواقفه منهم .

عقد الموادعة — وغزوة بنى قينقاع

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم علاقته باليهود فى يثرب التى أصبح اسمها (المدينة) بأن عقد حلفاً بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ، وبين اليهود شرط فيه لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين فى المصلحة العامة ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق ، وأُمنهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، مما كان يجب عليهم معه أن يكفوا أذاهم عنه ويتركوه لما بعث من أجله ، ولكن ما جعلوا عليه من الشر والمكر والفساد أذى عليهم إلا أن يكيدوا له وللمسلمين . فأخذوا يشككون الناس فى صدق نبوته ويروجون الشائعات المغرضة ، ويتهمونهم بالكذب والنقل عن كتبهم فى محاولة واضحة لصرف الناس عنه وتأليبهم عليه . ولم يكتفوا بالكلام المسموم يهيمسون به فى آذان الناس ، بل تبادوا فى الجرأة والوقاحة ، وجاهرُوا بأحقادهم فى شعر راح بعضهم ينظمه ويردده فى مجالسهم ومجالس المشركين . والشعر يومذاك سلاح من أخطر الأسلحة ؛ لما كان له من تأثير قوى فى النفوس ، وكان الناس يحفظون الجيد منه ويرددونه ، فهو بمثابة

الإداعة المسموعة والمرئية والصحف في أيامنا هذه . وكان من شيوخ اليهود رجل يدعى أبا عفك ساءه انتصار المسلمين في بدر ، فأخذ ينظم شعرا يهجو فيه النبي ويحرض قومه عليه ، فكأنه أعلن بذلك خروجه على عقد المودعة ونبذه للواجبات التي فرضها على أطرافه يهودا ومسلمين ، ودلل على خطره الشديد على المسلمين وبالتالي ضرورة التخلص منه ؛ لذلك صدر الحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، وكلف أحد المسلمين وهو سالم بن عمير التنفيذ .

وهكذا أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود أن أى تصرف فيه إساءة للإسلام وللمسلمين لن يمر بدون عقاب مهما كان مرتكبه . كما أثبت للعرب من غير المسلمين أنه ليس بظالم ولا مفتت على أحد ، بل معتدى عليه يرد الاعتداء .

ولقد كان قتل أبى عفك كفيلا بأن يجعل اليهود — لو كانوا عقلاء — يكفون عن سلوكهم الدنيء ويلتزمون بالعقد الذى كفل لهم الأمن والطمأنينة ، ولكنهم أصروا على المضى فيما عقدوا العزم عليه من الكيد للإسلام وإحداث الواقعة بين العرب مسلمين وغير مسلمين . وبدأت أقدم القبائل اليهودية المحاولة ، وهى قبيلة بنى قينقاع ذات الباع الطويل فى شق صفوف العرب فى الجاهلية والواقعة بينهم . وكان يهود هذه القبيلة أثرياء لاحتكارهم العمل بصياغة الذهب وبيعه ، فهم لم يكونوا يعملون بالزراعة ولم تكن لهم أرض يزرعونها ، وكانت لهم سوق تحمل اسمهم . وفى ذات يوم — عقب غزوة بدر — توجهت امرأة مسلمة إلى سوقهم ، وقصدت صائغا

يهوديا لأجل أن تشتري منه حليا، وبينما هي جالسة/إذ أقبل بعض اليهود ، وطلبوا منها أن تكشف عن وجهها ، فلما أبت عمد الصائغ نفسه إلى ذيل ثوبها فعقده بظهرها وهي لا تشعر ، فلما قامت بدت عورتها ، فأخذ اليهود يضحكون منها ، فصاحت فأقبل على صياحها رجل من المسلمين ، فلما رأى ما يحدث قتل الصائغ ، فتشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهله المسلمين ، فأقبلوا ووقع الصدام بينهم وبين اليهود ، وأسرع بنو قينقاع بالارتداد إلى حصونهم استعدادا لقتال المسلمين ، وذلك بدلا من أن يحتكموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حدث كما يقضى بذلك عقد المودعة . ومن وراء حصونهم القوية أعلنوا المسلمين بالحرب على الرغم من أنهم هم الذين بدعوا العدوان ، ثم إن المسلم الذي قتل اليهودي قتل هو أيضا مما كان سيجعل حل المشكلة سهلا . ولكنهم لم يكونوا يريدون حلا ، بل حربا كحرب سمر وبعث يقاتل فيها العرب بعضهم بعضا .

وكان قد سبق لليهود بنى قينقاع أن استفزوا المسلمين وتحولهم ، مما جعل الرسول يحذرهم من مغبة ذلك وينصحهم بالكف عن ذلك ، فإذا بهم يقولون له في عنجهية وصلف : يا محمد لا يغرر بك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، يقصدون من ذلك أنهم على علم بالحرب وأنهم سوف يلحقون بالمسلمين الهزيمة ، فهم ليسوا كالكفار الذين هزمهم المسلمون بيدر . وفي هذا مايدل على أن بنى قينقاع ومن ورائهم بقية اليهود إنما أرادوا أن

يستدرجوا المسلمين إلى معركة يهزمونهم فيها ؛ فيقضوا بذلك على الأثر الذى أحدثه انتصارهم فى بدر .

ومن المستبعد أن يكون ماحدث من الصائغ اليهودى تصرفا فرديا ؛ لأنه لو كان كذلك لتصدى له اليهود من قريظة والنضير ، حرصا منهم على استمرار السلام والهدوء بينهم وبين المسلمين . ولكن الذى حدث أن الجميع أخذوا يسخرون من المرأة المسلمة وقد بدت عورتها ، وهو تصرف حقير من رجال ضد امرأة لا حول لها ولا قوة .

والراجح أنه كان هناك اتفاق بين اليهود ورأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول بشأن إشعال الفتنة واستدراج المسلمين إلى الحرب وهزيمتهم بعد أن استفحل خطرهم نتيجة لانتصارهم فى بدر ، فما إن يحدث الصدام حتى يتقدم هذا المنافق وأتباعه لنصرة مواليه من اليهود ، وينضم إليهم يهود بنى النضير وبنى قريظة وغيرهم من اليهود الذين كانوا يقيمون حول المدينة ، فتدور الدائرة على المسلمين وينتهى أمرهم ، إما إلى هزيمة ساحقة تقضى عليهم ، وإما إلى ضعف شديد يجعلهم لايمثلون أى خطر على اليهود .

فماذا كان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل فى هذه الحالة ؟ لقد كان أمامه بعض الخيارات ، وهى أن يطلب من المسلمين التحلى بضبط النفس ، وكأنه ليس طرفا فى المشكلة . وهو مايفعله البعض الآن كلما ارتكب اليهود جريمة فى حق إخواننا الفلسطينيين . أو أن يفاوض اليهود فيعرف ماذا يريدون وما الذى لايريدونه ،

وعندئذ يدخلونه في متاهة ليس لها آخر ، وتمتد المفاوضات في حين أنهم يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين . أو أن يلجأ إلى الدولة الفارسية التي كان اليهود يدينون لها بالولاء يرجوها أن تمارس عليهم ضغطاً من أجل أن يلينوا ويسلموا للمسلمين بجزء من مطالبهم ، وإذا راجعه أحد من المسلمين قال له إن جميع أوراق اللعب في يد فارس . أو أن يلجأ إلى المعسكر الآخر ، معسكر القسطنطينية يدعوها للاشتراك في مؤتمر دولي الغرض منه التوصل إلى اليهود لكي يستجيبوا لبعض مطالب المسلمين ، ويقسم لهم على حبه للسلام ، بل عشقه له ، وأنه لا يمانع في الاعتراف لليهود بكل ما يزعمون أنه حق لهم . أما الخيار الأخير فهو أن يواجه عدوانهم بالقوة والحزم والعزم فينبذ إليهم على سواء ، طالما أنه يخاف من خيانتهم ، كما أمره الله تعالى ﴿وَمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (٢).

وهكذا بادر الرسول صلى الله عليه وسلم فحاصر حتى بنى قينقاع بحصونه القوية قبل أن ينضم إليهم آخرون ، فأحاط بهم كما يحيط السوار بالمعصم بحيث منع عنهم الإمدادات ، وحال دون اتصاَلهم باليهود من بنى قريظة والنضير والمنافقين أتباع عبد الله بن أبي بن سلول . وانتظر بنو قينقاع أن يمد إليهم أحد من هؤلاء يده بالمساعدة دون جدوى . فقد تريت بنو النضير وقريظة ريثما يبدأ عبد الله بن أبي الهجوم فيتبعونه ، في حين جبن هذا عن التصرف .

وهنا تظهر براعة الرسول العسكرية وبُعْدُ نظره وحكمته وإلمامه الكامل بكل أبعاد الموقف وبطبيعة المشاركين فيه . ففضلا عن قطعه لأى اتصال بين بنى قينقاع وأنصارهم ، فإن تبكيه بشأن الهجوم على هذا النحو كانت له مزايا أخرى : منها بث الخوف فى نفوس اليهود ، وهز الثقة بأنفسهم وبقوتهم وإقناعهم بأن جرأة المسلمين ليست من فراغ ، وهو مظهر بوضوح من رد فعلهم ، حيث بدوا وكأنما أصيبوا بالشلل ، فلبثوا داخل حصونهم لا يدرون كيف يتصرفون ، على الرغم من أنه كان لديهم سبعمائة مقاتل منهم أربعمائة مدرعون . وهذا العدد يزيد على عدد المسلمين الذين حاصروا القلاع . ونسى اليهود ما سبق أن توعدوا به الرسول إذا ما نشبت الحرب بينهم وبينه .

وهكذا استمر الحصار مضروبا عليهم خمس عشرة ليلة دون أن يمد إليهم أحد يد المساعدة ، ومما يرجح أن تكون قوة المسلمين أقل من قوة اليهود أن عدد المسلمين يوم بدر كان حوالى ثلاثمائة وعشرة رجال مابين مهاجرين وأنصار ، ولا نظن أنها زادت كثيرا يوم حصار يهود بنى قينقاع الذى حدث بعد مدة قصيرة من معركة بدر . فلما أيقنوا أن أحدا لن يساعدهم اضطروا إلى الاستسلام للرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كل ما فعله عبد الله بن أبى من أجلهم أن طلب من الرسول تركهم ليغادروا المدينة بعد مصادرة أموالهم ، فأخرجوا جميعا إلى أذرعات وهم يحملون أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم .

ويهمنا بهذه المناسبة أن نعلق على ماجاء ببعض الروايات التى تناولت غزوة بنى قينقاع ؛ نظرا لما اشتملت عليه من أمور لا نعتقد

بصحتها ، ونرجح — والله أعلم — أن تكون مما أضافه الرواة فيما بعد . يقول ابن الأثير : إنه لما نزل يهود بنى قينقاع على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فكتفوا ، وهو يريد قتلهم ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فقام إليه عبد الله بن أبى بن سلول فكلمه فيهم ، فلم يجبه ، فأدخل يده في جيب رسول الله (أى فى فتحة صدره) فغضب رسول الله وقال له : ويحك أرسلنى . فقال : لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر . فقال النبى : هم لك ، خلوهم لعنهم الله ونعنه معهم .

والقصة على هذا الوجه يفهم منها أنه لولا تدخل عبد الله بن أبى بهذه الطريقة العنيفة لكان الرسول قد قتلهم . وهذا غير صحيح فى رأينا ؛ فالرسول لم يكن ينوى قتلهم ، وإلا لقتل يهود بنى النضير فيما بعد ، وهو لم يلمح أو يصرح بانصراف نيته إلى قتلهم . كما أن نزولهم على حكمه لا يفهم منه أنه كان قد حكم بقتلهم . ولو أنه كان قد رأى أن يقتلهم ما كان تدخل عبد الله بن أبى بالذى يجعله يعدل عن قراره ، وبهذه الصورة غير الكريمة التى ستجعله يبدو كما لو كان خائفا من عبد الله بن أبى .

أما عن التصرف الذى نسب إلى عبد الله بن أبى وهو أنه أمسك بتلابيب الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حد أن أعجزه عن تخليص نفسه أو اضطر إلى أن يطلب منه أن يتركه ، فإنه تصرف مستحيل لأكثر من سبب : فمن ناحية لا يتصور صدوره عن منافق

جبان مثل ابن أبيّ ، اعتراه الخوف من يهودى هو كعب بن أسد القرظى لما توعد بالانتقام منه بعد وقعة بعاث ، وأخذ يقسم له إنه لم يشترك فى المعركة ويأتى إليه بالشهود يؤيدون دفاعه ، فمثله لا يجزئ على الإمساك بتلايب الرسول ، وأمام من ؟ أمام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وحزمة وغيرهم من الصحابة الذين كان الواحد منهم لا يتردد فى التضحية بنفسه فداء للرسول — ثم أين عبد الله بن أبى من الرسول بقوته ومهابته بحيث يقدم على إتيان مثل هذا التصرف معه دون خوف أو وجل ، وهو الذى كان لا ينفك يقسم على إخلاصه ، بل ويكذب فيما يتعلق بما ينسب إليه ، ويتظاهر بالبراءة وسلامة النية ؟ إن أقصى ما يمكن أن يفعله من كان مثل ابن أبى أن يتوسل ويرجو لا أن يتشاجر ويقسو .. والغالب أنه ظن أن الرسول سيقتل رجال بنى قينقاع فتوسل إليه أن يكتفى بطردهم إلى أذرعاء .

وهكذا فشلت المؤامرة ولم يفلح اليهود وأعوانهم فى بذور الفتنة بين العرب ، وشق صفهم كما كانوا يفعلون قبل الإسلام . ولكن هل استفاد اليهود من هذا الدرس ؟ كلا . فإن ما حدث زادهم حقدًا على المسلمين ، وأجج فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام منهم ، وكان تقاعس عبدالله بن أبى عن مساعدة بنى قينقاع سببا فى لجوء يهود بنى النضير إلى المشركين فى مكة وغيرها يتآمرون معهم ضد المسلمين ويمدونهم بالمعلومات التى تفيدهم فى صراعهم معهم . فأخذوا يتجسسون على المسلمين ، ويبحثون عن نقاط الضعف لديهم ليدلوا المشركين عليها .

وكان على رأس الجواسيس اليهود سلام بن مشكم سيد بنى النضير ، الذى اجتمع بأبى سفيان بالقرب من المدينة وأبلغه بالأوضاع فى المدينة وبنقطة الضعف فى حدودها ، وحثه على انتهاز الفرصة وغزوها ومباغطة المسلمين بحيث يمكنه أن يوقع بهم الهزيمة . وعلى الفور وجه أبو سفيان حملة هاجمت المدينة من المكان الذى دلّه عليه سلام بن مشكم ، فقامت بحرق النخيل وقتل رجل من الأنصار وحليف له ، فلما شعر بهم المسلمون ونهضوا لردهم بادروا بالفرار وهم يلقون جرب السويق بقصد التخفف وسرعة الهروب ؛ فلذلك سميت غزوة السويق ، وكان ذلك فى السنة الثانية للهجرة .

استخدام اليهود الشعر للطعن فى أعراض المسلمين

وحزّ فى نفوس اليهود أن تفشل الهجمة التى شنها الكفار ، فعادوا إلى الشعر ينظمه شعراؤهم يُعرضون فيه بالرسول وبالمسلمين والمسلمات . وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إنه كان للشعراء فى الجزيرة العربية سلطان يفوق سلطان الصحافة فى الأزمنة الحديثة ؛ إذ كان العرب يحسبون بأن فيهم شيئا خارقا أو سحريا . وكان هناك شاعر يهودى يدعى كعب بن الأشرف ، كانت أمه من بنى النضير ، ذهب إلى مكة وأخذ يحرض قريشا على قتال المسلمين ، ثم عاد إلى المدينة ، فدخل حصنه وراح ينظم شعرا يشبب فيه بنساء المسلمين ويطعن فى أعراضهن ويشكك فى عفافهن ، حتى يهيج مشاعر الرجال ضدهن ويوقع بينهم . وعندئذ أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بقتله ، فتطوع لتنفيذ الأمر خمسة رجال من المسلمين مضوا إلى حيث يقيم كعب بن الأشرف فى حصنه فى حى بنى النضير فأنفذوا

فيه الحكم . ولما فتلوه خافت اليهود وأصبحت المدينة ليس فيها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه بعد أن وجدوا أن حيههم لم يعد يخيف المسلمين كما كان يخيف العرب قبل الإسلام ، وأدركوا أن أى أساءة إلى الإسلام أو المسلمين لن تمر بدون عقاب .

ومما قاله كعب بن الأشرف فى التشيب بأم الفضل بنت الحارث امرأة العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول امرأة آمنت بعد السيدة خديجة ، وهى أخت زوج الرسول :

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء وادعة لو تعصر انعصرت من ذى القوارير والحناء والكم
يرتج ماين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم
وغير هذا كثير مما أراد أن يسىء فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى آله

غزوة بنى النضير

ولكن يبدو أن يهود ظنوا أن بُعِدَ مدينتهم عن المدينة يحول دون وصول أيدي المسلمين إلى من يقيمون بها ، فأخذ أحد زعمائها وهو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق يؤذى الرسول بكلامه ويحرض على المسلمين ، وقد غاظه أن يُقَتَّل كعبُ بن الأشرف ، فصدر الأمر بقتله . وخرج خمسة رجال إلى خيبر ، فتحاولوا حتى وصلوا إليه فى حصنه فقتلوه ثم عادوا إلى المدينة .

وعلى الرغم من كل ماكان اليهود يفعلونه ، سواء فى السر أو فى

العلن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبعدهم من عقد المواعدة ، واكتفى بأن يطبق العقاب المناسب على من يخالف العقد . فلم يشأ أن يأخذهم جميعا بجريرة البعض منهم . ومع ذلك فإنهم لم يقدرُوا له ذلك ، واستمروا فى الكيد والدس والخداع والتضليل والتجسس والسعى بالوقعة دون كلل أو ملل .

وليس من شك فى أن ما حدث ليهود بنى قينقاع ثم لابن الأشرف ولأبى رافع قد فتت فى عضد اليهود ، وضاعف من خوفهم من المسلمين ، وإلا بادروا إلى مساعدة قريش يوم أُحُد ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا بإظهار الفرح والشماتة فى المسلمين لما وقعت بهم الهزيمة نتيجة لعدم التزام بعضهم بتعليمات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويبدو أنهم ظنوا أن ما حدث فى أُحُد قد أضعف المسلمين وجعلهم هدفا سهلا ، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حى بنى النضير يستعين بهم على أداء دية رجلين من بنى عامر كان قد فنلها عمرو بن أمية وهو يجهل أنهما أسلما ، وكان عقد المواعدة بين المسلمين واليهود ينص على أن يقدم أحد الطرفين المساعدة والعون للآخر إذا احتاج إليها ، وهو ما جعل الرسول يلجأ لبنى النضير ليقرضوه المال اللازم للدية .. لما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأخبرهم بما جاء من أجله لم يرفضوا ، بل رحبوا ثم خلا بعضهم ببعض ، وبدلا من أن يتباحثوا فى نديير المال المطلوب نامروا على قتل الرسول الذى كان قد جلس إلى جانب جدار ينتظر عودتهم

بالمال ومعه أصحابه ، وانتهى رأى اليهود إلى قتل الرسول بواسطة حجر يلقيه عليه أحدهم من أعلى الجدار ، ونسوا أو تناسوا أنه نبي رسول ياتيه خبر السماء ، ولما جاء الرسول الخبر من السماء بما عقدوا عليه العزم بادر إلى الانصراف دون أن يخبر أصحابه ، فلما استبطفوا عودته لحقوا به في المدينة حيث أخبرهم بما كان من اليهود ، وأصدر أمره إلى المسلمين بالاستعداد للحرب بنى النضير الذين خرقوا العهد بمؤمراتهم الدنيئة ، وعلى الفور تم جمع الجيش وسار إلى بنى النضير حيث تقع حصونهم فحاصرها ، وبهذا حال دون اتخاذهم الأهبة ومنع وصول أحد إليهم ممن يناصرونهم ، أو خروج أحد منهم للتدبير لفك الحصار ، وبالتالي جعلهم يعيشون في حالة من القلق على مصيرهم ، وهو القلق الذى أخذ يزداد كل يوم مع جهلهم بما يدور خارج الحصون المحاصرة . كما منع وصول أى إمدادات إليهم ، وكانوا أينما ولوا وجوههم من فوق حصونهم تصطدم أنظارهم بالمقاتلين المسلمين وهم يحيطون بهم من كل جانب يحملون أسلحتهم ، ويقفون متربصين لكل من يحاول فك الحصار . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الاستسلام حقنا للدماء وتجنبنا للخسائر ، ولكنهم أبوا فأمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فحاصرتهم النيران وضايقتهم الدخان وأيقنوا بالهلاك .

وكما حدث مع يهود بنى قينقاع من قبل ، فإن حليفهم عبد الله بن أبي لم يفعل شيئا لنصرتهم ، وكل ما أمكنه عمله أن أرسل إليهم يدعوهم إلى أن يثبتوا ويتمنعوا قائلا إنه لن يسلمهم أبدا ، وإن قوتلوا

فسوف يقاتل معهم ، وإن خرجوا فسيخرج معهم . وهو كلام لم يتحقق منه شيء ؛ فقد ظلوا محاصرين في حصونهم في حالة من الخوف الشديد والفرع رغم ما كان لديهم من مقاتلين لا يقل عددهم عن عدد المقاتلين المسلمين وقد يزيدون ، فضلا عن السلاح والعتاد .

ولما أيقنوا أن أحدا لن يمد إليهم يد المساعدة ، لاعبد الله بن أبي ولا بنو قريظة عرضوا على النبي أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال دون السلاح ، فأجابهم إلى ذلك فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

أما الذين ذهبوا إلى خيبر فكان على رأسهم عبد الله بن سلام بن أبي الحقيق ، وحى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق الذين لم يرضهم ما حدث لهم فعقدوا العزم على الانتقام من المسلمين ، ووضعوا من أجل ذلك خطة خطيرة تقوم على حشد كل القوى المعادية للإسلام لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين بالمدينة بحيث لا تقوم لهم بعدها قائمة ، وعلى ذلك فقد أخذوا يجرون اتصالات مكثفة بالقبائل العربية في مكة وغيرها ، كما اتصلوا بالمنافقين في المدينة واتفقوا معهم على إضعاف جبهة المسلمين بواسطة الشائعات والأكاذيب ، يطلقونها هنا وهناك من أجل بث الشك في نفوس المسلمين بشأن جدوى الحرب بينهم وبين الكفار الذين يفوقونهم في العدد والعدة ، والذين سيهاجمون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الأطفال فضلا عن الكبار ، ويستولون على الأموال ثابتة ومنقولة .

ونجح حى بن أخطب سيد بنى النضير في تكوين جبهة من قريش

وغطفان وبعض القبائل الأخرى ، وهكذا تحرك جيش مكون من أكثر من عشرة آلاف مقاتل، متجها إلى المدينة للقضاء على ما بها من المسلمين ، وفي مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتم إبلاغ عبد الله بن أبي بذلك لكي ينشط إلى نفرة المسلمين وجعل أكبر عددهم ينفذ من حول الرسول .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور المسلمين في الأمور التي لم ينزل عليه الوحي بشأنها ، فلما علم بتحرك جيش الأحزاب نحو المدينة بادر إلى عقد اجتماع حضره الصحابة لمناقشة الأمر والتوصل إلى أفضل طريقة يواجه بها المسلمون هذا الجيش الذي لم تشهد له المنطقة مثيلا من قبل ، واقترح الرسول أن يتحصنوا في المدينة ذاتها ويخوضوا المعركة بداخلها حيث يمكنهم حصر المشركين في دروبها وطرقها ، وعلى الفور أعلن عبد الله بن أبي موافقته على هذه الخطة ، بل وأخذ يزينها للحاضرين ويبالغ في وصف مزاياها وفوائدها للمسلمين ، ولكن آخرين اقترحوا أن يدور القتال خارج المدينة ، وذكروا مزاياه ، وأضاف سلمان الفارسي اقتراحه بحفر خندق على حدود المدينة في الجانب الذي يخلو من التحصينات الطبيعية ومن حصون بنى قريظة الذين لا يزالون حلفاء للمسلمين ، بحيث يعرقل تقدم الكفار نحو المدينة وينح للمسلمين الفرصة لقتال من يجتاز الخندق من مقابلهم ، ولكن عبد الله بن أبي عارض هذا الاقتراح ؛ لأنه يفوت عليه فرصة الغدر بالمسلمين إذا دارت المعركة داخل المدينة حيث يمكنه أن ينصم إلى صفوف الكفار ويسلمهم المواقع التي تعهد للمسلمين بالدفاع عنها .

وعلى الرغم من عدم أخذ الرسول بوجهة نظره ، فإنه لم يئأس واستمر في نشاطه الهادف إلى خلخلة صفوف المسلمين وجعلهم ينصرفون عن الرسول . ففي أثناء حفر الخندق كان أتباعه يهمسون في آذان المسلمين بكلام من شأنه أن يبعث الخوف في نفوسهم ويشككهم في نتيجة الحرب ، بل وبلغت الجرأة ببعضهم حدا لم يسبق أن وصلوا إليه من قبل ، حيث أخذوا يشككون في وعد الله ورسوله لهم بالنصر ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ (٣) بل لا يكتفون بذلك وإنما يضيفون إلى التشكيك بالأقوال الانسحاب من مواقعهم قائلين ﴿ إِنْ بَيُّوتُنَا غُرَّةً وَمَا هِيَ بِغُرَّةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ (٤) وهو تصرف مقصود به إصابة الآخرين بالخوف على بيوتهم وأولادهم ، وبالتالي فرارهم هم أيضا ، وبذلك تنهار جبهة المسلمين ، ويجتاحها الكفار واليهود يعملون فيمن تبقى الذبح والتقتيل إلى أن يستأصلوا شأفتهم وينتهي أمر الإسلام .

وليت الأمر وقف عند حصار الأحزاب للمدينة ، وترقبهم سنوح الفرصة لاجتياز الخندق والاشتباك مع المسلمين في معركة ضارية ، فهذا ما كان المسلمون قد هيئوا أنفسهم لحدوثه واتخذوا الأهبة لمواجهة . ولكن الذى حدث كان أخطر من ذلك بكثير حيث

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ١٢

(٤) آخر الآية ١٣ من سورة الأحزاب .

فوجئوا بخيانة يهود بنى قريظة لهم وانضمامهم إلى الكفار ، مما أدى إلى انكشاف ظهر جيش المسلمين ، بل وصبرورته عرضة للهجوم عليه من جانب اليهود من بنى قريظة ومعهم يهود بنى النضير الذين جاءوا مع حبي بن أخطب من خير ، فضلا عن اليهود الآخرين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المدينة ولا يستبعد انضمامهم إلى إخوانهم في أية لحظة .

وكان حبي بن أخطب العدو اللدود لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح في إقناع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة بنكث عهده للرسول ، وحمله على الغدر بالمسلمين قائلا له : يا كعب قد جئتكم بعز الدهور وبيحر طام ، جئتكم بقريش وقادتها وسادتها ، وغطفان بقادتها ، وقد عاهدوني أنهم لا يرحون حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، وعاهده حبي إن عادت قریش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيبه .

ولما انتهى خبر اتفاق كعب بن أسد القرظي وحبي بن أخطب إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتأكد ، فبعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، ومعهما عبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم : « انطلقوا إلى بنى قريظة فإن كان ما قيل لنا حقا فالحنوا لنا حنأ ولا تفتؤا في أعضاء الناس . وإن كان كذبا فاجهروا به للناس » فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخصب ما قيل لهم عنهم ، ونالوا من الرسول وقالوا : لا عهد له عندنا ، فشاتمهم سعد وشاتموه ، وكانت فيه حدة ، فقال له سعد بن

عبادة : دع عنك مشاقمتهم فالذى بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة المسلمين فقالا : عضل والقارة - يعرضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع حبيب وأصحابه - فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : أبشروا يامعشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

وكيف لا يعظم البلاء ويشتد الخوف وقد وجد المسلمون أنفسهم فجأة بين عُلُوِّين لَدُوِّين عقدا العزم على استتصالحهم والقضاء على الإسلام ؟ إن كل ما واجهوه من أخطار لا يُقَارَن بهذا الخطر ، حتى يوم أحد لم يكن الخطر بهذا القدر ، فهم لم يحاصروا بعشرة الاف مقاتل من تحتهم ، وبألف أو يزيد من فوقهم ، هم مقاتلو بنى قريظة والنضير . ولن يجد الإنسان وصفا لحالة المسلمين في هذا الموقف العصيب أدق ولا أعظم من وصف القرآن الكريم لهم ﴿ إِذْ جَاءَ وَكَرَّ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٥) لقد أصيب المسلمون بالذهول ، واحتتقت أنفاسهم حتى كادت تزهق أرواحهم لما علموا بما دُبِّرَ لهم ، ليس ذلك وحسب ، بل إن هؤلاء الرجال الذين لم يهتز إيمانهم بالله أبدا في أى موقف مهما كان عصيبا ساورتهم الظنون بشأن تأييد الله لهم وغلب على ظنهم أنه قد تحلى عنهم . وما زاد الطين بلة ذلك النشاط المحموم

(٥) الآيتان ١٠ و ١١ من سورة الأحزاب

الذى قام به المنافقون وسط المسلمين لتشتيت عزائمهم وتحطيم معنوياتهم : فمنهم المولول النادب لحظه وحظ أولاده ، ومنهم الهارب يتعلل بالخوف على بيته وأولاده ولقد ندد الله تعالى بهم في

قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ

الْأَذْبَنَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْغُولًا ۝١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ

الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَنُونَ

إِلَّا قَلِيلًا ۝١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ

أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْصِقِينَ

مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ

إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨﴾ أَشْجَىٰ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ

يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ

الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ أَشْجَىٰ

عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ

ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

(٦) الآيات من ١٥ إلى ١٩ من سورة الأحزاب

لقد كانت محنة شديدة بكل المقاييس . ولم يكتف يهود بنى قريظة بالانضمام إلى الأحزاب وتهديد ظهر جيش المسلمين ، بل أطلقوا عملاءهم خلف المسلمين يتجسسون عليهم للتعرف على ترتيباتهم ويخيفون النساء والأطفال وكبار السن من الرجال الذين تركهم المسلمون وراءهم حتى لا يتعرضوا للإصابة في حالة نشوب المعركة . ومما يروى في ذلك أن السيدة صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في حصن حسان بن ثابت الشاعر ، وكان حسان فيه مع النساء ؛ لأنه كان جباناً ، وبينما هي تظل خارج الحصن إذ رأت يهودياً يطوف بالمكان متجسساً فطلبت من حسان أن ينزل إليه ليقبله حتى لا يدل على عورات المسلمين ، فامتنع حسان ، وعندئذ أخذت عموداً ونزلت إلى اليهودى فباغتته وقتلته ، ثم رجعت إلى حسان فطلبت منه أن ينزل ليأخذ سلب اليهودى ؛ لأنها شغرت بخرج من فعل ذلك ولأنه رجل ، فأجابها حسان بأنه ليس به حاجة إلى سلب الجاسوس اليهودى .

وتتابعت الأيام والحصار مستمر ، الكفار من الأمام واليهود من الخلف ، والأحوال تزداد سوءاً ، وأخذ الرسول العظيم يفكر ويدبر ويدعو الله أن يفرج الكرب ، ويذهب الخوف والفزع من نفوس المسلمين ، وفي نفس الوقت يحاول أن يأخذ بالأسباب ليعلم المسلمين أن النصر والنجاح والفلاح لا تكون إلا بالعمل والبدل والتضحية وإعمال الفكر ، وأن الاسلام ليس تصريحاً أبدياً للمسلمين باحتكار النصر والرفعة والثروة والجاه دون جهد أو عناء . وكان مما فعله أن تفاوض مع غطفان فعرض أن تنسحب من الحلف مقابل أموال تُدفع

لها . وكما هي عادة الرسول في كل ماليس يوحى ، فقد شاور أصحابه فاعترضوا فأوقف المفاوضات . وإن كان مجرد إجرائها قد أحدث أثراً سيئاً في نفوس الحلفاء حيث تسرب الشك إلى نفوس زعماء قريش في مدى إخلاص غطفان للهدف الذى جاءوا من أجله ، كما أن غطفان كانت قد ملت من الانتظار دون شن هجوم على المسلمين ، في حين أن اليهود كعادتهم - ينتظرون أن تبدأ الأحزاب الهجوم ، وتلقى الصدمات الأولى بما تحتمله من خسائر في الأرواح والعتاد ، ثم يتحركوا هم ليصولوا ويجولوا في ميدان المعركة التى أوشكت أن تنتهى فيمعنوا قتلا في المسلمين وسلباً لأموالهم ، وبعد ذلك يتحدثون عن بطولات مقاتليهم وبلاء جيوشهم .

ولما استبطأتهم الأحزاب بعثت إليهم بوفد يحثهم على البدء في الهجوم على مؤخرة جيش المسلمين ، ولكنهم تعللوا بأن اليوم سبت لا يعملون فيه شيئاً ، وطلبوا إمهالهم إلى يوم آخر على أن تعطيهم الأحزاب رهائن من رجالها ضماناً لعدم تخليها عنهم وتركها إياهم للرسول صلى الله عليه وسلم لينتقم منهم . وكان الذى اقترح عليهم ذلك رجل من المسلمين اسمه نعيم بن مسعود ، لم يكونوا يعلمون بإسلامه كما كان موضع ثقتهم . كذلك قام نعيم في الوقت نفسه بإبلاغ قريش وغطفان أن اليهود يسيئون الظن بهم وأنهم لذلك سيطلبون منهم عدداً من الرهائن لكي يسلموهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل على بقائهم على العهد وإخلاصهم للرسول وغدرهم بالكفار . فلما أبلغ اليهود الأحزاب بطلبهم الخاص

بتسليمهم الرهائن صدّقوا ما قاله لهم نعيم ، فرفضوا الاستجابة لطلب اليهود ورفض اليهود بالتالى دخول الحرب .

عندئذ ، وبعد أن أخذ المسلمون بالأسباب وصمدوا وتحملوا وثابروا ، تدخلت إرادة الله العظيم الرحيم بعباده فانطلقت الرياح من عقابها عاصفة تحتاج فى طريقها كل شىء حتى القدور الثقيلة دفعتها الرياح كما لو كانت قطعاً من الورق وتطايرت الخيام فى الهواء ، وأجفلت الخيل وثارت الإبل واختلط الحابل بالنابل ، فانتقل الفرع من معسكر المسلمين إلى معسكر الكفار وارتفع الصراخ ، واختلطت النداءات ، فلا أحد يدري إلى أين حملته الرياح ولا أين أصحابه ، وتبدد جيش الكفر وولى هارباً وهو لا يصدق أنه قد نجا ، وعادت قريش تجر أذيال الخيبة والعار ، وكانت غطفان قد سبقتها مطاطفة الرأس ذليلة تصب اللعنات على حى بن أخطب وعلى اليهود الذين استدرجوها إلى هذه الكارثة . أما اليهود من بنى قريظة وبنى النضير فقد ارتدوا إلى حصونهم بمقاتليهم الثمانمائة ، يجرون أذيال الخيبة يرتعدون فرقاً وخوفاً مما سوف يصيبهم نتيجة لخيانتهم .

وفيما يتعلق بعدد المقاتلين المسلمين الذين واجهوا الأحزاب واليهود ، فإن الآراء قد اختلفت بشأنه : فهناك رأى يذهب إلى أنه كان سبعمائة مقاتل ، وهناك رأى آخر يذهب إلى أن عددهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فضلاً عن الآراء الأخرى التى تذكر أعداداً تتراوح بين الرقمين السابقين . وفى رأينا أن القول بأن عدد المقاتلين المسلمين كان ثلاثة آلاف فيه مبالغة شديدة ، ثم إن الفرق بين

السبعمائة والثلاثة الآلاف فرق كبير جدا ، ولا يعقل أن يكون البعض قد لاحظ أن جيش المسلمين كان سبعمائة ، في حين يلاحظ البعض الآخر أنه كان ثلاثة آلاف ؛ لأن الفرق بين الرقمين من الضخامة بحيث لا تخطئه العين . وعموما فإن ملاحظتنا على العدد الذى ذكره المؤرخون من الفريقين تستند إلى الأسباب الآتية :

أولا - أن عدد المسلمين الذين اشتركوا في غزوة أحد كان سبعمائة ، ولما كانت المدة التى انقضت بين هذه الغزوة وبين غزوة الخندق حوالى عام ، فإنه من غير المتصور أن يكون عددهم قد زاد بهذا الشكل ليصل إلى ثلاثة آلاف .

ثانيا : أنه طبقا لما قيل من أن توزيع العمل في حفر الخندق قد جرى على أساس أن لكل عشرة رجال من المسلمين أربعين ذراعا ، مما يعنى أن طول الخندق كان اثنى عشر ألف ذراع وهو ما يساوى تسعمائة ألف سم (الذراع = ٧٥ سم) أو ٩٠٠٠ متر ، أى ٩ كم ونرجح أن هذا كان طول الجهة من المدينة الخالية من العوائق الطبيعية والحصون ؛ لأنه لا يعقل أن يكون قطرها ، المدينة تسعة كيلو مترات فقط ، خاصة إذا لاحظنا أنها كانت مكونة من أحياء تفصل بينها في بعض الأحوال أحيال . والذى نرجحه أن الذين اشتركوا في حفر الخندق لم يكونوا كلهم من المقاتلين ، وإنما اشترك معهم آخرون ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الخندق وعمقه وطبيعة الأرض وغير ذلك ، وأيضا المدة التى استغرقها الحفر ، وكذلك عدد ساعات العمل .

ثالثا : أن غزوة خيبر ، التى سبقت ذكرها فيما بعد ، على خطورتها ؛ لبعدها من ناحية ، ولكونها مسعمرة يهودية حصينة كل سكانها من اليهود — لم يزد عدد المقاتلين المسلمين الذين اشتركوا فى غزوها على ١٤٠٠ راجل و ٢٠٠ فارس . وكان بينها وبين الأحزاب أكثر من عام ، وبينها وبين أحد أكثر من عامين ، أى أنها مدة كافية لأن يتضاعف المسلمون ، خاصة بعد الانتصار الكبير فى غزوة الأحزاب ثم فى بنى قريظة وفى غيرها ، فضلا عن صلح الحديبية .

ومع ذلك ، وحتى لو أننا افترضنا أن عدد المسلمين الذين تصدوا للأحزاب كان قد بلغ فى أول الأمر ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو ما ذكره البعض — فإن هذا الرقم مالبث أن انخفض إلى الرقم الآخر ، وهو السبعمائة ، نتيجة لفرار المنافقين والخائفين الذين تأثروا بدعايات أتباع عبد الله بن أبي بن سلول . وهذا ما أردنا أن نبينه بالنسبة لما لاحظناه ويلاحظه من يقرأ التاريخ الإسلامى من تفاوت كبير بين البيانات ، وبخاصة ما كان منها له علاقة بالغزوات والمعارك .

ثم نأتى إلى آخر معركة ، أو غزوة من الغزوات التى استهدفت طرد اليهود من مستوطناتهم فى المدينة ، وهى غزوة بنى قريظة . ويلاحظ من يقرأ ماكتبه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم — اهتمامهم الشديد بهذه الغزوة التى استغلوا ما انتهت إليه للإساءة إلى الإسلام والمسلمين ، حيث لم يكفوا عن التنديد بما حدث من قتل المقاتلة من اليهود ، وكان عددهم سبعمائة ، وفى قول آخر ثمانمائة ، وتباروا فيما بينهم فى إظهار العطف

والحزن والأسى لمقتل هذا العدد الكبير مما يوحى لمن يقرأ لهم أنهم أناس جبلوا على الرحمة ، وطبعوا على الشفقة ، وليسوا قتلـة سفاحين تقطر أيديهم وأفواههم بدماء الملايين من الأبرياء الذين غزوا بلادهم ، وعاثوا فيها فسادا ونهبوها بطريقة بشعة واستنزفوا ثرواتها ، وهامهم يعيشون في رغد من العيش بفضل الثروات التي سرقوها ، في حين أن أصحاب هذه الثروات الحقيقيين يعانون من الفقر والجوع والتخلف .

لقد تجاهلوا عن عمد مآذكرناه حالا من تصرفات يهود بنى قريظة ، وما كان سيؤدى إليه من قضاء على الإسلام وإبادة للمسلمين ، ومضوا يذرفون الدموع على القتلـة الأبرياء أجداد العصابات الصهيونية المجرمة التي أعملت الذبح والتقتيل في الفلسطينيين الأبرياء العزل الذين كانوا يقيمون في قراهم آمنين يظنون أن جنود بريطانيا التي كانت عظمى سيحمونهم بموجب مايفرضه عليهم قرار الانتداب ، ولكنهم تركوهم ليقعوا فريسة سهلة في أيدي القتلـة السفاحين ، الذين لم يتورعوا عن بَقْرِ بطون النساء الحبالى ، وتمزيق أجساد الأطفال الصغار ، وتدمير البيوت ، ونهب محتوياتها في بطولة فريدة ليتهم أظهروا ربعها أو أقل من ذلك أمام هتلر وزبائنه .

ولكن هكذا هم اليهود في كل زمان ومكان ، يعضون الأيدي التي تمتد إليهم بالمساعدة ، ويستأسدون على الضعفاء والنساء والأطفال ، ويتظاهرون بالشجاعة والجرأة أمام من يفوقونهم جبنا ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . ولتَرَ ما فعلوه يوم غزاهم الرسول

صلى الله عليه وسلم في آخر مستوطناتهم في المدينة وهو حى بنى قريظة.

غزوة بنى قريظة .

بعد عودة المسلمين من الخندق وهم يحملون الله ويثنون عليه لإنقاذه لهم من الكارثة المروعة التي كادت تصيبهم بسبب تصرف بنى قريظة الإجرامى — جاء الأمر من السماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوهم ؛ عقابا لهم على خيانتهم ، فخرج الرسول على الناس وقد ارندى ثياب الحرب ، وحمل سلاحه ، وكلف مناديا ينادى : من كان سامعا مطيعا فلا يُصَلِّينَ العصر إلا في بنى قريظة .

وهنا نَعْنُ لنا ملاحظة على ماورد بكتب التاريخ الإسلامى من أوصاف بشأن الغزوات والمعارك التى خاض المسلمون غمارها ، فهم يُظهرون الأمر كما لو كان هممة عشوائية شبيهة بالتظاهرات التى يقوم فيها الغوغاء بإلقاء الحجارة على الشرطة ، فى عملية كَرٍّ وفَرٍّ غير منظمة ، بل تغلب عليها الفوضى والارتجال ، وتسودها الفردية التى لاتخضع لأى ضوابط ، ولاتلتزم بأى خطة .

وهو ما نلاحظه فى وصفهم لغزوة بنى قريظة التى قالوا بشأنها : إن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى الأمر من السماء بواسطة جبريل عليه السلام بعد عودته من غزوة الخندق مباشرة ، بالهجوم على بنى قريظة إلى آخر مذكرناه فى هذا الشأن . ويقولون : فانطلقوا ، أى المسلمون ، إلى أن بلغوا حى بنى قريظة

فَضَرَبُوا عَلَيْهِ الْحَصَارَ ، وَبَطِيعَةُ الْحَالِ فَإِنَّ الصُّورَةَ الَّتِي سَتَبَادِرُ إِلَى أَذْهَانِنَا هِيَ انْطِلَاقُ جَمْعٍ غَفِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَرَاوَحُ مَايْنِ سَبْعِمِائَةٍ وَثَلَاثَةِ آلَافٍ مُقَاتِلٍ ، وَهُمْ الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَانُوا يُوَاجِهُونَ الْأَحْزَابَ عِنْدَ الْخَنْدَقِ - إِلَى حَيْثُ يَقِيمُ بَنُو قَرِظَةَ ، وَلَا نَدْرِي كَيْفَ كَانَ سِيرُهُمْ ، أَوْ مَا سَمَوْهُ انْطِلَاقَهُمْ ؟ أَكَانَ مَشْيَا عَادِيَا مُتَهَادِيَا ، أَمْ كَانَ هَرُولَةً ؟ أَمْ كَانَ جَرِيَا ؟ دُونَ أَنْ يُحْسِبُوا حِسَابَا لْجَيْشِ بَنِي قَرِظَةَ الْمَكُونِ مِنْ ثَمَانِمِائَةِ مُقَاتِلٍ أَشْدَاءَ ، أَخْلَوْا الْأَهْبَةَ - وَلَا شَكَّ - بَعْدَ انْسِحَابِ الْأَحْزَابِ وَتَوَقُّعِهِمْ أَنْ يَتَحَوَّلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَيْهِمْ لِيَنْزِلُوا بِهِمُ الْعِقَابَ الرَّادِعَ - أَنْ يَشْنُ عَلَيْهِمْ هَجُومًا مُبَاغِتًا قَبْلَ وَصُولِهِمْ إِلَى حُصُونِ بَنِي قَرِظَةَ ، أَوْ أَنْ يَكْلِفَ بَعْضُهُمْ مِنْهُمْ مَنَاوِشَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي سِيرِهِمْ أَوْ جَرِيمِهِمْ وَالْانْقِضَاضَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ !! فِي حِينٍ أَنَّهُمْ يَسِيرُونَ بِدُونِ نِظَامٍ أَوْ تَرْتِيبٍ .

وَلَسْتُ أَخْفَى مَا شَعَرْتُ بِهِ دَائِمًا ، وَأَنَا أَقْرَأُ مَا وَرَدَ فِي الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ بِشَأْنِ الْغَزَوَاتِ مِنْ دَهْشَةٍ شَدِيدَةٍ لِلْسَهُولَةِ غَيْرِ الْعَادِيَةِ الَّتِي اتَّسَمَ بِهَا إِحْرَازُ الْمُسْلِمُونَ لِلنَّصْرِ فِي مُعَارَكِ تَغْلِبَ عَلَيْهَا السَّذَاجَةُ وَالْإِرْتِمَالُ ، وَيَغِيبُ عَنْهَا التَّنْظِيمُ وَتَفْتَقِرُ إِلَى الْإِعْدَادِ الْمُسَبِّقِ وَالتَّخْطِيطِ وَكَأَنَّهَا مُشَاجِرَةٌ فِي حَارَةٍ ، أَوْ خُنَاقَةٌ فِي مُبَارَاةٍ مِنْ مُبَارِيَّاتِ كُرَةِ الْقَدَمِ . هَذَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُؤَلَى فِيهِ هَذَا الْمَوْرُخُ أَوْ ذَاكَ أُمُورًا أُخْرَى قَلِيلَةً الْقِيَمَةِ أَوْ عَدِيمَةً الْأَهْمِيَّةِ اهْتِمَامًا شَدِيدًا .

كَذَلِكَ فَقَدْ نَسِيَ الْمَوْرُخُونَ ، فِي حَدِيثِهِمْ عَنِ انْطِلَاقِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَنِي قَرِظَةَ ، الْمَدِينَةَ وَمَنْ بِهَا ، حَيْثُ يَقِيمُ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مِمَّنْ لَا يُؤْمِنُ جَانِبُهُمْ ، وَهُمْ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ

تعالى في سورة الأحزاب لما بدر منهم في غزوة الخندق التي لم يكن غبارها قد هدأ بعد ، ولا قالوا لنا ماذا فعل الرسول عندما مضى لغزو بنى قريظة ؟ وهل صحبوه أو رفضهم واستبعدهم ؟ وهل حسب حسابا لما يمكن أن يفعله ضعاف النفوس والمنافقون أثناء غيابه ؟ بل هل فكر أصلا في المدة التي سيغيبها عن المدينة في هذه الغزوة ؟ وسوف نرى كيف أن كثيرين من الأوس - فضلا عن أتباع ابن سلول - كانوا يعطفون على بنى قريظة ، ولا يرغبون في توقيع العقاب العادل عليهم ، فهل كان الرسول مدركا لذلك ؟ وماذا فعل وكيف تصرف قبل أن يترك المدينة إلى حصون بنى النضير ؟

هذا ماسكت عنه المؤرخون واكتفوا بالإفاضة في الحديث عن أمور ثانوية لاتقارن بما ذكرناه .

والواقع أن التاريخ الإسلامى بحاجة إلى أن تعاد كتابته ، وفقا للأصول العلمية الحديثة ، بحيث نتجنب الحشو والمبالغة في الاهتمام بالموضوعات الثانوية والبعد عن الإفاضة فيما لا يعد من التاريخ مثل جواز أداء البعض لصلاة العصر قبل بلوغ بنى قريظة ، فهذا من الأمور التي لاتدخل في مفهوم التاريخ ، وبالتالي تستبعد منه وتوضع في مكانها من العلوم الأخرى ، ومثلها كثير ثم حشّره في كتب التاريخ حتى تضخمت بلا داع ، في حين أُهْمِلَت أمورٌ على جانبي كبير من الأهمية مثل الغزوات والمعارك ، على الرغم من أن ماجرى فيها يُعدُّ من الدروس الهامة التي يجب على المسلم أن يعيها جيدا ، هذا فضلا عن أن إبرازها في صورة صحيحة ودقيقة يجعل المسلم لا يستهين

بما واجهه السلف العظام من صعوبات وما تحملوه من الالم ومعاناة من أجل أن يحافظوا على الدعوة سليمة قوية فاعلة .

وقد يقول البعض ممن لا تهمهم مثل هذه الأمور ولا يكفون عن ترديد العبارات التي تحمل معنى التواكل وعدم بذل الجهد والعناية اعتمادا على الله كما يقولون ، قد يقول هذا البعض : إن المسلمين اندفعوا في غمرة الحماس إلى تلبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالانطلاق إلى بنى قريظة لإيمانهم بأن هذا هو ما أراد الله ، وبالتالي فإنه سبحانه وتعالى سيحميهم من أى أضرار قد تصيبهم لأى سبب كان ، كأن يكون اليهود قد نصبوا لهم كمينا أو كائنا هنا أو هناك أو قيامهم بشن هجوم مفاجيء على جموع المسلمين قبل أن يصلوا إلى حبيهم .

ولكن أصحاب هذا القول يفوتهم أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن الله تعالى الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، أمره وأمر المسلمين أن يأخذوا بالأسباب ، **وَالْأَيْتَاكُلُوا فَقَالَ لَهُمْ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ آخِذٍ لِّتُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَتَنْهَوْنَ عَنْهُمْ أَنْ يُعِلُّوا فِتْنَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ ۚ وَلَا تَقْعَبُوا بَالِحِينَ ۚ وَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ وَأَنَّهُ يَكْفِيكَ اللَّهُ شَأْنَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُؤْتِي ۚ ﴾** (٧) .

ولقد رأينا كيف أنهم لما أهملوا فى أحد ، وتخلت كتيبة الرماة عن

(٧) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

موقعها طمعا في الأسلاب ، مُخَالَفَةً بذلك الأمر الذي أصدره الرسول إليها بعدم ترك موقعها مهما كانت الأسباب ، حتى وإن رأيتهم يهزمون - حلت الهزيمة بالمسلمين ، وأى هزيمة ؟ وما كان الله لينصرهم وقد أهملوا واستخفوا وخالفوا . وما ذلك إلا لأن الله يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء ، أذكاء ، يتميزون بالحصافة وبعيد النظر ، وبالنوعى والفتنة وحسن التصرف ، والمهارة لا أن يتخلوا من الإسلام مطية لبلوغ أهدافهم أو حصناً يرد عنهم شر أعدائهم دون أن يبذلوا جهداً أو يتحملوا عناء ، أو يُعِدُّوا أنفسهم لمواجهة أعدائهم مفضلين الترف والحياة اللينة على الكد والعرق والتضحية من أجل حياة كريمة آمنة حرة ، يملكون فيها زمام أمورهم ، ولا يخافون من شرذمة حقيرة كاليهود أن ينقضوا عليهم ، ولا يخضعون لمن يناصبون دينهم العداء ويكثرون لرسولهم الكراهية والبغضاء .

ومما وجدناه متناثراً في بعض الكتب نيين لنا أن الأمر لم يكن كما يصوره المؤرخون هجمة عشوائية ، أو مظاهرة فوضوية تنتهى بإحراز المسلمين للنصر على أعدائهم ، وإنما تنظيم متقن وتخطيط محكم وإعداد مسبق يأخذ فيه الرسول بعين الاعتبار كافة الاحتمالات ، ولا يترك شيئا للصدفة . فقد كان له عليونه ، وهم رجال أمناء محل ثقة ينقلون إليه ما يريد أن يعرفه عن أعدائه .. وكان منهم المقيمون وسط الأعداء بصفة دائمة والذين يقومون بمهمة واحدة ، كما كان لديه فريق للاستطلاع مُهِمَّتُهُ الاقتراب ، وإن أمكن التسلسل إلى صفوف الأعداء لمعرفة عددهم وعدتهم وما اتخذوه من تدابير .

كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يؤزع المهام على أصحابه ، ولا يترك الأمر فوضى : فهناك المسئول عن السلاح ، والمسئول عن الخيل ، والمسئول عن الإمدادات . كما كان له حرسه . ولم يكن الجيش - كما يصوره المؤرخون - مجموعة من الناس تنطلق كيفما كان ، وإنما كان يسوده النظام والانضباط ويأخذ بالتخصص : فهناك المشاة والرماة والفرسان ، ولكل دوره المحدد . والجيش نفسه يتكون من ميمنة ، وميسرة ، ومقدمة ، وساقة ، فضلا عن القلب ، وهي خمسة أقسام ؛ لذلك سمي خميسا . وكانت هناك فرق للاقتحام ، وأخرى للهجوم الرئيسى ، وثالثة للتحرك فى أعقاب المهاجمين مهمتها تطهير الميدان من فلول الأعداء . هذا بالإضافة إلى حامل الراية والأمير ، ومن يخلف الأمير إذا هلك هذا ، وغير هذا كثير مما لم يحظ بعناية المؤرخين .

وعلى هذه الصورة وبهذا الترتيب المحكم جرى ضرب الحصار على حى بنى قريظة الحصين ، فأحاط المسلمون بمحصولهم لا يسمحون لأحد بالدخول أو بالخروج . والمثير للدهشة ذلك الإصرار من جانب المؤرخين على القول إن المسلمين ضربوا الحصار على حصن بنى قريظة مما يجعل القارىء يفهم أنه لم يكن هناك غير حصن واحد ركز عليه المسلمون كل جهدهم حتى نجحوا فى الاستيلاء عليه أو أرغموا من كانوا به على الاستسلام .. وهذا خطأ بلا شك ؛ إذ أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يوجه الهجوم ويضرب الحصار على حصن واحد أو على عدد كبير من الحصون .

وهو العرق الذى ينعكس على الخطة الموضوعة للهجوم وتوزيع المهاجمين وتشكيل القوة المهاجمة واتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء ما يمكن أن يحدث من تعاون أو اتصال بين الحصون بعضها وبعض أو بينها وبين أعوان اليهود من المنافقين ، ثم هناك الجهد المطلوب بذله ، والوقت الذى يستغرقه الحصار ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة . ويقول ابن كثير : كانت بنو قريظة - وهو طائفة من اليهود - لهم حصن شرق المدينة - وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ! فأى حصن هذا الذى يتسع لهذا العدد من المقاتلين ؟ وهو قول يخالف ما جاء فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَأَزَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ﴾ ^(٨) يعنى حصونهم ، ومنه سميت صياصي البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شئ فيها ، فهى إذن حصون عالية قوية جيدة التسليح ويقول توماس أرنولد : إن المدينة كانت فى زمن النبی محمد (صلى الله عليه وسلم) تضم عددا عظيما من اليهود يقيمون فى قلاع حصينة .

وإذا كان عدد المقاتلين اليهود ثمانمائة مقاتل ، فمعنى ذلك أن هذه القبيلة كانت مكونة من حوالى ثلاثة آلاف مائة رجل ونساء وأطفال لا يتصور أن يقيموا جميعا فى حصن واحد ، خاصة أن الحصون فى ذلك الوقت ، وفى الحجاز على سبيل التحديد - لم تكن كبيرة بحيث تتسع لإقامة عدد كبير من الناس لمدة طويلة يمارسون

(٨) الآية ٢٦ من سورة الأحزاب

حياتهم العادية من نوم وطعام وشراب وقضاء حاجة وغير ذلك ، كما حدث حين حاصر المسلمون يهود بنى قريظة لمدة خمسة وعشرين يوماً ، وهو ما ذكره الروايات المختلفة .

لذلك نرجح أن يكون عدد حصونهم عشرين حصناً ، وهذا التقدير لم يرقم على أساس ما يمكن أن يتسع له الحصن من أفراد ؛ فهذه الحصون لم تكن مباني عامة أنشئت بغرض حماية كل السكان من اليهود ، وإنما كانت مساكن لأصحابها من ذوى الجاه والغناء تأخذ شكل الحصن لكي يحتتموا بها ومعهم أموالهم وثرواتهم ، أما بقية اليهود ممن ليسوا على ثراء أولاً يملكون ما يحشون عليه فقد كانوا يقيمون في بيوت بنيت من مواد محلية كاللبن وسعف النخل وسوقه ، ومن مواد أخرى كالخشب يستخدمونه للنوافذ والأبواب ، وهو من النوع الصلب الثقيل . وغالباً ما كانت الحصون تقام بطريقة تمكن المقيمين فيها من توفير الحماية لسكان البيوت الذين كانوا يتركون بيوتهم ليختبئوا في هذه الحصون إلى أن يزول الخطر .

ولا يذكر لنا المؤرخون المسلمون شيئاً مما حدث بعد أن ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار على آخر مستوطنة يهودية بالمدينة ، ولا ما جرى من الثمانمائة مقاتل يهودى ، وإنما اكتفوا بالقول إن الحصار استمر خمسة وعشرين يوماً في قول ، وشهراً كاملاً في قول ، وكأن الفرق بين القولين - وهو خمسة أيام من المعاناة والقلق - ليس بذى شأن ، وكأن الفريقين ظلاً ساكنين ينظر أحدهما إلى الآخر : المسلمون حيث يقفون حول الحصون ، واليهود من فوق

الأسوار ومن خلال نوافذ حصونهم ، إلى أن اعتراهم الملل ، ونال منهم الخوف والفرع ، فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم بواحد من المسلمين هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصاري ، من الأوس ، لكي يستشيره ، فأرسله ، فلما رآوه قام إليه الرجال ، وبكى النساء والصبيان ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح .

وليس من شك في أن الأمركان على خلاف ذلك ، فقد حاول اليهود أن يردوا المسلمين عن حبيهم ويفكوا حصارهم لحصونهم ، ولاشك أيضا في أن يهود بني النضير حاولوا أن يقدموا لهم المساعدة ، فقد كان زعيمهم حُيُّ بن أخطب محاصرا هو الآخر منذ انسحاب الأحزاب . بل ولا نستبعد أن يكون بعض المنافقين والسذج ، أو مَنْ كانوا يحسنون الظن باليهود من الأوس حلفاء بني قريظة ، ومن الخزرج أنصار عبد الله بن أبيّ قد رَقَّوا لحالهم وحاولوا أن يفعلوا شيئا لأجلهم . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل أمام إصرار المسلمين على هزيمة بني قريظة وإنزال العقاب الرادع بهم جزاء خيانتهم وغدرهم .

ومما يدل على وجود ميل لدى بعض الأوس نحو بني قريظة ، ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الحكم على بني قريظة لرعيم الأوس سعد بن معاذ ؛ فقد أحاط الأوس بالرسول يقولون له : افعل في موالينا مثلما فعلت في موالى الخزرج ، يعنى بنى قينقاع وبنى النضير ، فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ؟

قالوا : بلى . وهنا يثور تساؤل بشأن السبب أو الاسباب التى جعلت الأوس يطلبون من الرسول أن يعامل بنى قريظة كما عامل بنى قينقاع ، على الرغم من الفارق الكبير بين مافعله هؤلاء وما فعله أولئك : فبنو قينقاع دبروا مؤامرة لإثارة الفتنة بين العرب ، وذلك عندما كشف أحدهم عن عورة المرأة المسلمة ، فى حين أن بنى قريظة فعلوا ما هو أخطر من ذلك ، حيث نقضوا العهد مع الرسول ، وتحالفوا مع المشركين فى أخطر غزوة وهى غزوة الأحزاب ، فأصبحوا مصدر تهديد حقيقى وهم فى مواقعهم فوق المسلمين ، فلو أن الحرب وقعت واشتركوا فيها فعلا لتمكنوا هم والمشركون من سحق المسلمين وقتل الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل كان إلحاح الأوس فى المطالبة بمعاملة بنى قريظة مثل معاملة بنى قينقاع وبنى النضير سببه ألا يكون وضعهم عند الرسول أدنى من وضع الخزرج ، وهو أمر يعتبرونه ماساً بكرامتهم وشرفهم ، بغض النظر عن التفاوت فى الذنب ، خاصة أنه قد جاء فى تفسير القرطبى أنهم قالوا : يارسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت عبد الله بن أبى بن سلول فى بنى النضير حلفاء الخزرج ، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا ، فهم مواليها - أو أن مطالبتهم بأن ينال بنو قريظة نفس المعاملة التى نالها بنو قينقاع يرجع إلى العاطفة والوفاء ، حيث سبق لبنى قريظة أن أوهموهم بأنهم يناصرونهم ضد الخزرج ، إيماناً منهم بقضيتهم ، وليس بدافع الرغبة فى تأجيج الخلافات بينهم .

وهكذا نلاحظ أن البعض ممن أسلموا كانوا لايزالون يولون

الأمر ذات الطبيعة العصبية ، اهتماما يفوق اهتمامهم بالمصالح العليا لجماعة المسلمين . ومع ذلك فإن الرسول الكريم كان يعاملهم برفق ، ولا يحاول أن يصدم مشاعرهم ، أو أنه كان يجد أن مستواهم الفكرى البسيط لا يحتمل أن يدخل معهم فى حوار ليبين لهم الفرق بين ما يريدونه استنادا إلى النعرة القبلية ، وما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين . وهكذا كانت معارك الرسول ليست مع أعداء الإسلام من مشركين ويهود فقط ، بل ومع بعض المسلمين الذين لم يرتقوا بفكرهم إلى مستوى الأحداث .

ولم يكتف الأوس بأن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سعد ابن معاذ بالحكم على اليهود ، بل ترقبوا وصول سعد من المدينة إلى حيث يقع حى بنى قريظة على أميال منها ، ولاذوا به يقولون له : ياسعد ، إنهم مواليك ، فأحسن فيهم ، ويرققونه عليهم ويعطفونه .

أما اليهود فقد قالوا لسعد يومئذ : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك ، وأهل النكابة^(٩) ومن قد علمت .

ولكن كل هذه التوسلات لم تجد ، فإن سعدا نحى مشاعره جانبا ، ولم يفعل كما فعل عامة الأوس ، فنظر فقط إلى ما فعلوه وما كان سيعرتب عليه من نتائج وآثار بالغة الخطورة ، خاصة أنه هو

(٩) يقال : نكيت فى العدو نكابة : إذا أكثر فىهم الجراح والقتل . يصممهم بالبأس والتسلية .

نفسه قد حذرهم من مغبة أعمالهم ، فشتموه وأساعوا إلى الرسول ، فكان أن حكم أن تقتل المقاتلة ، وتسبى الذرية والنساء ، وتقسم الأموال . فضربت أعناقهم وكانوا سبائة أو سبعمائة ، وقيل ما بين سبعمائة وثمنامائة ، وفيهم حُيَّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكعب ابن أسد سيد بنى قريظة .

ولقد كشف حُيَّ بن أخطب في الكلمة التي قالها قبل أن يقتل ما يثبت أن العفو عنه وعن بقية اليهود ما كان ليؤدي إلى عدوهم عن موقفهم من الإسلام ومن المسلمين ، وإنما كانوا سينسحبون من المدينة ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويدبروا لغزوة أشد خطورة وأكثر إحكاما من غزوة الخندق التي فشلت ، فقد قال يوجه كلامه للرسول صلى الله عليه وسلم : والله ما لمت نفسي في عداوتك .

وهكذا حاقت الهزيمة بثالث كبريات القبائل اليهودية في المدينة بنى النضير ونزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبِهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۖ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُمُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ (١٠) ﴾

(١٠) الآيتان ٢٦ و ٢٧ من سورة الأحزاب .

وقال بعض المفسرين إن « أرضا لم تطعوها » هي « خير » التي كانت أكبر مستوطنة يهودية في الحجاز لا يقيم بها غير اليهود . وعلى الرغم من أن غزوها وقهر من كانوا بها يلى فى الترتيب ، فإننا سنؤجل الحديث عنها إلى الفصل الثالث والأخير ؛ نظرا لارتباط فتحها بموضوع هام جدا هو زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حُيَّ بن أخطب ، وما قيل فيه ، أى فى هذا الزواج من آراء بعيدة كل البعد عن الصحة ، وسنستمر مع بقية المستوطنات اليهودية الأخرى التى أخصعها المسلمون وقضوا على سيادة اليهود عليها .

لا شك أن أخبار الغزوات التى غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ، بالطريقه التى وردت بها فى كتب السيرة والتاريخ الإسلامى - نطمس الرابطة التى تربط هذه الغزوات بعضها ببعض ، كما أنها تطمس الباعث الحقيقى عليها ، والهدف الحقيقى الذى استهدفته ، فتظهرها كما لو كانت أعمالا عسكرية متفرقة جرت بطريقة عشوائية ، أو كيفما اتفق . وهذا غير صحيح على الإطلاق .

ذلك لأن المعركة مع اليهود لم تكن تقل أهمية عن المعركة مع قريش والمشرىين عموما ، بل ربما تفوقها لأسباب عديدة : منها : أن المشرىين كانوا عربا ، أى أصحاب البلاد ، على خلاف اليهود الذين رأينا كيف غزوا الجزيرة العربية واستوطنوا الكثير من مناطقها الهامة وأقاموا فيها دويلات تملك الثروة والقوة والسلطان .

كذلك ، فإن نرك العرب الشرك واعتناقهم الإسلام ، إذا حدث ، مع بقاء اليهود الدخلاء ، وهم أصحاب دين يقوم على التوحيد أيضا ، ولو في صورة متوهة بعد أن عبت اليهود بالتوراة - كان سيؤدى إلى صراع بين الدينين لا يعلم مداه إلا الله ، ومن يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية فسيرى كيف أن اليهود لم يكفوا عن مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم ونكذبيه وإشاعة الشكوك والريب حول دعوته . ليس ذلك وحسب ، بل إن كثيرين منهم ممن اعتنقوا الإسلام كانوا لا يتورعون عن التشكيك في نبوة الرسول ، وبالذات أثناء غزوة تبوك .

ومن الأسباب أيضا ، أن بقاء اليهود بين ظَهْرَانِي العرب كان من شأنه أن يتيح لهم الفرصة لممارسة سياستهم الهادفة إلى نألب العرب بعضهم على بعض بيعت الخلافات القديمة من مرقدها ، وخلق الصراعات بين القبائل العربية ، وهو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا أشد الحرص على منعه بكل السبل ، حتى لا تنبذ قوى المسلمين ويستمرروا كما كانوا - ضعافا مقهورين يستذلهم اليهود والفرس والروم .

وحيث إن اليهود قد رفضوا منذ البداية التصديق بنبوة الرسول وناصبوا الإسلام العداء ، وخالفوا عقد المودعة ، فإن طردهم من الجزيرة العربية أصبح أمرا لا مَفَرَّ منه ؛ منعا لشرورهم ونألافيا لخطرهم .

ولكن كيف يتم ذلك ؟ هذا هو ما كان الرسول صلى الله عليه عليه

وسلم يفكر فيه ، مع أخذه بعين الاعتبار قوتهم التى كان يقال عنها الكثير ، ولكنها ليست معروفة على وجه التحديد ، وهو ما كانوا يحرصون عليه أشد الحرص ، كما هو دأبهم الآن ؛ لما لذلك من دور فى إخافة أعدائهم وجعلهم يترددون فى الهجوم عليهم . وكذلك خطتهم فى إقامة المستوطنات ، التى روعى فيها أن يكون بعضها رديفا لبعض بحيث يكون من السهل تقديم العون والدعم والمساعدة من المستوطنات المتأخرة إلى المستوطنات المتقدمة ، واستخدام الأولى كخط رجعة فى حالة ما إذا نزلت الهزيمة بالثانية ، فيلجأ إليها المنسحبون بأموالهم وأسلحتهم وعتادهم ، وهو ما فعله بنو فينقاع وبنو النضير ، فقد فصد الأولون أذرعاً ، فى حين قصد الآخرون خيبر ، التى تضاعفت قوتها وزاد خطرهما .

ولذلك فإن بعض المستشرقين يعتبرون فتح خيبر أول فتح فعلي يقوم به المسلمون ، وهذا صحيح من جميع الوجوه ، فلقد كانت خيبر مستوطنة يهودية خالصة لا يقيم بها غير اليهود ، تتميز بالتسليح الجيد والحصون القوية المنيعة ، وبوجود المقاتلين الأشداء المشهورين بين العرب واليهود على السواء .

وإذا كان اليهود قد فقدوا مستوطناتهم فى المدينة ، فإنهم عللوا ذلك بوجودها فى متناول أيدي المسلمين ، وذلك بخلاف المستوطنات الأخرى ، وعلى رأسها خيبر ، التى كانت بعيدة عنهم بمسافة طويلة ، وهذا ما جعل اليهود يبنون أنفسهم بالنصر على المسلمين إذا ما فكروا فى الهجوم عليها ؛ نظراً لبعد الشقة وما يترتب

عليها من معاناة ، فضلا عما يتوفر لتلك المستوطنة من مزايا لاشك أنها ستتيح لها التفوق على المسلمين .

وكانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى على المستوطنات الثلاث في المدينة ، أن يقضى على أكبر وأخطر المستوطنات اليهودية التي تنتشر بين المدينة والحدود الشمالية للحجاز ، وذلك لأسباب عديدة ، منها : أنه لا يصح أن يتجاوز خير ويوجه هجومه إلى مايليها شمالا ؛ لأنه بذلك سوف يجعل ظهره مكشوفاً لليهود خير ويعرض جيشه لهجومهم ، فيقع بين فكي الكماشة وتلحق به الهزيمة . هذا فضلا عما سيؤدى إليه ذلك من انقطاع اتصاله بقاعدته في المدينة ، مع احتمال أن يؤلب اليهود القبائل العربية عليه ، فتهاجم المدينة وليس فيها إلا عدد ضئيل من المسلمين لا يمكنهم الدفاع عنها .

وهكذا كان لسقوط خير دوى هائل صك آذان اليهود على طول المنطقة الممتدة إلى الحدود الشمالية مع الإمبراطورية البيزنطية ، واعتراهم خوف شديد ؛ ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد ينتهى من خير حتى توجه بجيشه إلى وادى القرى القريب من خير ، فحضر عليه الحصار بضع ليالٍ ، أخذ اليهود أثناءها يقذفون المسلمين بسهامهم من وراء حصونهم ، فأصابوا خادما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه ، ولكنهم مالبثوا أن أدركوا عقم مقاومتهم ، وأنهم لن يفلحوا حيث فشل يهود خير فعرضوا الصلح على الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يؤدوا الجزية ويخضعوا

للمسلمين ويعملوا لهم كمزارعين في الأرض مقابل نصف المحصول .
واستمر تأثير الهزيمة التي لحقت بخيبر ، في اليهود القرييين منها ،
فبادر يهود تيماء الذين كانوا يُكِنُّون عِدَاءً شديدا للرسول إلى إظهار
استعدادهم للخضوع للمسلمين مختارين ، وشجعهم على ذلك مالقيه
إخوانهم في وادى القرى من حسن المعاملة ، وظلوا يعملون في
أرضهم نظير أداء الجزية .

كذلك فعل يهود فَدَّك الذين أصابهم رعب شديد لَمَّا سمعوا بهزيمة
وسقوط خيبر ، فبعثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصالحونه على
النصف من فدك فقبل ذلك منهم وتم إبرام الصلح .

وهكذا أدى سقوط المستوطنة اليهودية القوية في خيبر إلى سقوط
ثلاث مستوطنات يهودية أخرى هي : وادى القرى ، وتيماء
وفدك ، ولكن ابن سعد في طبقاته ذكر مستوطنة يهودية أخرى هي
« الجرباء » قال إنها استسلمت هي الأخرى .

ولكن بقيت ست مستوطنات أخرى في أقصى الشمال يجب
القضاء عليها ، حتى يتخلص الحجاز كله من تسلط اليهود
واستغلالهم ، ويأمن غدرهم وخيانتهم . صحيح أن المدينة كانت قد
تطهرت منهم ، ولكن منطقة الحدود الشمالية المتاخمة لدولة الروم
كانت ماتزال تحت سيطرتهم هي والطرق التجارية الهامة التي تصل
الجزيرة العربية بالشام وفلسطين ومصر .

غزوة تبوك

فى السنة التاسعة من الهجرة بدأ الإعداد لغزو تبوك وماحولها ..
وفى هذا الصدد يهمنأ أن نناقش ماورد بكتب التاريخ والسيرة . فقد
ذكر ابن هشام أن الرسول قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر
أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه
يُبَيِّنُها للناس لِيُبْعِدَ الشُّكَّ وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يقصد له ؛
ليتأهب الناس لذلك أهبتة ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد
الروم .

ونظرا لأن هذا الذى قاله ابن هشام ليس إلا استنتاجا لا يقوم على
صحته دليل ، لا من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من
الواقع ، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم سبق أن صرح بغزوه
لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة دون أن يكنى ، أى يخفى
وجهته الحقيقية لأجل أن يباغت أعداءه . ولكن فى الأحوال التى
ذكرناها كان الأعداء قريبين والمهجوم حال لا يحتاج إلى وقت طويل
ولا سير لمسافات بعيدة ، وهو ماختلف فيه غزوة تبوك ؛ لذلك
نرجح أن يكون العكس هو الصحيح ، أى أنه لما صرح الرسول بأنه
يقصد الروم فإنه كان يقصد غيرها ، وهى تبوك وماهو قريب منها
من المستوطنات اليهودية ، وهناك أكثر من دليل يؤيد استنتاجنا هذا
منها :

أولا - أنه لم تكن هناك أى فائدة من غزو الرسول صلى الله عليه
وسلم للروم ، الذين كان لديهم جيوش جرارة وأعوان كثيرون من

حلفائهم العرب ، والجميع على مستوى عال من الخبرة العسكرية والحربية ، فضلا عن وجودهم قريبا من قواعدهم في الشام ، بعكس المسلمين الذين كانوا بعيدين جدا عن قاعدتهم في المدينة .. أما القول بأن الرسول إنما أراد أن ينتقم لشهداء مؤنة الذين قتلوا في معركة غير متكافئة مع الروم ، حيث كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف مقابل مائة ألف أو أكثر من جنود الروم وحلفائهم العرب - فإن الرسول نفسه لم يصرح بشيء يفهم منه أن ذلك هو السبب في غزوه للروم ، وإنما كان ماصرح به أنه سيعزو الروم .

ثانيا - أن الصراحة الشديدة التي نكلم بها الرسول عن غزوة الروم ، هي ذاتها التي توحى - وبسهولة شديدة - بأنه إنما كان يقصد وجهة أخرى غير الروم ؛ لأنه إذا كان قد تعمد أن يخفى وجهته فيما قام به من غزوات ضد قريش أو غيرها ، فمن باب أولى إذا قصد أن يغزو الروم ؛ لأنهم أقوى وأكبر ، وجيوشهم ضخمة وأسحلتهم كثيرة ومتنوعة ، وخبرتهم عظيمة ، فأن يباغتهم بالهجوم دون أن يكون لديهم علم هو الأصح ، ولكنه كان يريد أن يباغت اليهود ، وليس الروم ، ولذلك صرح بالروم ولم يصرح باليهود .

ثالثا : أن الظروف التي كانت الغزوة ستم فيها كانت تستدعى فعلا لإخفاء وجهتها ؛ ذلك لأن تبوك كانت بعيدة عن المدينة بمسافة تسمح لسكانها ولسكان المستوطنات الأخرى بالاستعداد للملاقاة جيش المسلمين ، إذا ما بلغهم مقدمهم لحربهم ، وقد كان بين المسلمين من يتعاطفون مع اليهود ، مثل عبدالله بن أبي بن سلول ،

الذى بلغت به الخيانة أن انسحب وعاد إلى المدينة بأتباعه ، تاركا الرسول في طريقه إلى نبوك بل وكان هناك عملاء يهود ، وإن كانوا قد تظاهروا بالإسلام : منهم سويلم الذى كان يجمع الناس ويشبطهم عن الاشتراك في الغزو ، وزيد بن اللصيت القينقاعى ، وآخرون ، فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم صرح بأنه يقصد تبوك لبعثوا بالخير إليها ، فاستعدت لملاقاته بجيش كبير يتكون من رجالها ورجال المستوطنات الأخرى القريبة ، وربما استعانت بآخرين من القبائل العربية المعارضة للرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماذا إذا نعى الخير إلى الروم بأن الرسول إنما يقصدهم فعلا لا اليهود ، وأخذوا أهبتهم لملاقاته في جيش ضخم يقضى عليه وعلى من معه ؟ بطبيعة الحال فإن مثل هذا الاحتمال لا يمكن أن يكون قد غاب عن فطنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه كان حاضرا - وبوضوح - وإلا ماصرح بأنه يقصد غزو الروم ، ولكن بما أنه لم يكن ينوى غزوهم فإنه استبعد أن يشتبكوا معه في حرب داخل حدود الجزيرة العربية حيث الصحراء الشاسعة التى لاخبرة لهم بالحرب فيها ، ثم إن تبوك تقع داخل الجزيرة ، ولا شأن لهم بها بعكس معان ومؤتة اللتين حاربوا فيهما العرب في العام السابق ، فهما تقعان داخل حدود الإمبراطورية ، وبالتالي لم يكن يجوز ترك العرب يصلولون ويجولون فيها ؛ لما في ذلك من مساس بهيبة الإمبراطور ودولته .

أما أن يقال إن الرسول أراد غزو الروم لما علم بتجمعهم في

جيوش جرارة على حدود الحجاز ، ثم لما بلغ تبوك توقف بضعة أيام ، ثم عاد أدراجه ، فإنه كلام يعوزه الدليل . فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالذى يتصرف على هذا الوجه ، أى أن ينتزع الناس من بيوتهم فى الحر الشديد وفى ظروف بالغة القسوة ، حيث لا ماء تقريباً ، ولا مكان يرتاح الناس فيه ، وقد كان معظم الجيش من المشاة وقلة من الفرسان ؛ لكى يقول للروم هأنذا وهو يقف بعيداً عنهم بأميال داخل حدوده ، كلا طبعاً ، وإنما كان الغرض هو غزو تبوك ولاشئ غير ذلك ، وما كانت تبوك والمستوطنات الست الأخرى بالتى يستهان بها ، خاصة أنها أصبحت آخر مكان فى أيدى اليهود ووجودهم فيه مسألة حياة أو موت ؛ إذ ليس بعد ذلك إلا العودة إلى الروم الذين كانوا قد فروا منهم ، وكانوا يكرهونهم بشدة قد لا تزيد عن كراهيتهم للمسلمين ، ولكن هؤلاء بالنسبة لهم أرحم بكثير وأشد تسامحاً ، وهو ما أخبرهم به إخوانهم الذين لحقوا بهم من المدينة وخيبر وغيرها .

وهكذا ، فإن يهود تبوك والمستوطنات الأخرى اطمأنوا لما بلغهم أن المسلمين يقصدون الروم ، واستبعدوا أن يهاجمهم حتى لا ينال ذلك من قوتهم ، ويستنفد بعض طاقاتهم ، فيلتقوا بالروم وهم فى حالة من الإرهاق والضعف ، بل وربما تصوروا أن المسلمين قد يهادنونهم تلافياً لشركهم أو تجنباً لخطرهم ، وقد يستعينون بهم للحصول على الإمدادات اللازمة ، خاصة أن خطوط إمداداتهم مع قاعدتهم فى المدينة طويلة بدرجة لا تسعفهم فى الحصول على ما يحتاجون إليه فى الوقت المناسب .

ولكن كل توقعاتهم فشلت ، واستولى المسلمون على تبوك ، واضطروهم إلى الاستسلام بعد أن وجدوا أنه لا فائدة ، بل لاسبيل إلى المقاومة ، فأذعنوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ووافقوا على أداء الجزية ، وأن تعود الأرض إلى أصحابها على أن يحصلوا هم على نصف غلتها ، وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم في تبوك عشرة أيام ، فوفدت عليه وفود المستوطنات الأخرى التى أيقنت بالنهاية المحتومة ، وأن لاسبيل إلى الوقوف في وجه أصحاب الأرض الذين لم يعودوا كما كانوا عندما غزت يهود الحجاز . وهكذا خضعت أذرح ، وقمنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، بل وأيلة التى كانت دويلة نصرانية يقيم بها بعض اليهود ، فقد جاء ملكها المدعو يوحنا بن رؤبة يعلن خضوعه للرسول ويلتزم بدفع الجزية .

وبغزوة تبوك سقط سلطان اليهود نهائيا ، وأصبحت مستوطناتهم ملكا للمسلمين ، وجرى إنشاء المساجد في طول وعرض المنطقة الممتدة بين تبوك والمدينة يتردد من فوقها صوت المؤذنين خمس مرات كل يوم بنداء الله أكبر ، وبشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولكن هل كف اليهود عن عدائهم للمسلمين ، وكبحوا رغبتهم في الكيد لهم ، بعد كل ما أصابهم ؟ كلا بطبيعة الحال ؛ فإنهم لو فعلوا هذا لما كانوا يهودا ، ففي خيبر قتلوا غيلة رجلا من المسلمين يُدعى عبد الله بن سهل ، ولما سألهم الرسول عن ذلك بناء على اتهام أولياء القتيل لهم أنكروا ، بل وأقسموا أنهم ماقتلوه ، وعندئذ أدى الرسول صلى الله عليه وسلم الدية من ماله ، مَنعاً لثأر المسلمين منهم .

ومرة ثانية حاولوا قتل عبد الله بن عمر لما ذهب إلى خير يتفقد ماله . ولكنه لم يُقتل وأصيب في يده فقط . ويبدو أنهم قد نظموا ما يشبه حركة إرهابية سرية تهدف إلى قتل المسلمين ، أو تخويفهم لكي يتركوا لهم خير .

لذلك ، فإنه لما ثار الجدل حول تصرفاتهم التي تخالف التزاماتهم بموجب العهد الذي سبق أن منحه لهم الرسول ، نعى إلى علم الخليفة عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي قبضه الله فيه : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فتحرى عمر ذلك وفحصه حتى تثبت منه ، فأرسل إلى يهود ، فقال : إن الله عز وجل قد أذن في إجلائكم ، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتني . به ، أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتنجهز للجلاء .

وهكذا أجلاهم عن الجزيرة العربية بعد أن تأكد بصورة نهائية أنهم لن يكفوا عن الكيد للمسلمين وإيذائهم ، فآلت مستوطناتهم إلى أصحابها الحقيقيين ، كما ستؤول مستوطناتهم في فلسطين إلى أصحابها بإذن الله .



غزوة خيبر وزواج الرسول صلى الله عليه وسلم
من صفية بنت حيي

غزوة خيبر وزواج الرسول صلى الله عليه وسلم

من صفية بنت حيى

من بين الغزوات الكثيرة التى غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم للمستوطنات اليهودية ، حظيت غزوتنا بنى قريظة وخيبر باهتمام شديد من المستشرقين والمؤرخين الغربيين ، فأتخذوا مما حدث فيهما ذريعة للتهجم على الإسلام ، وتوجيه النقد الشديد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

بالنسبة لغزوة بنى قريظة ، تجاهلوا كل الأسباب التى أعدم من أجلها المقاتلون اليهود ، ووجهوا كل اهتمامهم إلى العدد الذى قتل ، وتباروا فيما بينهم فى إظهار الحزن والأسى على أولئك المجرمين الذين ماكانوا يترددون ولو للحظة واحدة فى أعمال الدبح والتقتيل فى المسلمين صغارا وكبارا ، كما فعل الصهاينة فى القرى الفلسطينية فيما بعد .

أما بالنسبة لغزوة خيبر ، فإنهم استغلوا ماحدث بعدها من زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة صفية بنت حُيى بن أخطب ؛ لاتهامه بأنه قتل زوجها لكى يتزوجها ، بل وقال بعضهم : إنه خالف مايقضى به الدين الإسلامى من ضرورة استبراء المرأة بأن تزوجها عشية المعركة التى سقط فيها زوجها قتيلًا .

والحقيقة أن ما قالوه بالنسبة لزواج السيدة صفية لم يكن من بنات أفكارهم ، وإنما استقوه مما ورد بكتب السيرة والتفسير والتاريخ التي تناولت ما حدث في خير بطريقة يفهم منها أن هذا هو ما حدث بالفعل . فقد أورد معظم المفسرين والمؤرخين روايات بشأن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من صفية تتضمن هذا المعنى ، فقد زعموا أنه تزوجها عقب قتله لزوجها ، دون أن يبينوا المدة التي انقضت بين قتل الزوج وزواج الرسول من صفية ، بل إن منهم من أورد الرواية بطريقة يفهم منها أن هناك علاقة بين الزواج وقتل الزوج ، ومنهم من ذكر روايات أكثر فجاجة تتحدث عن الظروف التي اكتنفت زواج الرسول بصفية ، ظهر فيها الرسول كما لو كان رجلا من هذا النوع الذي يتحكم فيه الهوى ، فيملأ عليه تصرفاته ، أو كما لو كان زعيما لعصابة ينافس أعوانه على امرأة جميلة ، أو في أحسن الظروف كأنه ملك يؤثر نفسه بابهنة ملك وقعت بين السبي . والغريب في الأمر أن كثيرا من هذه الروايات تنسب إلى مصدر واحد على الرغم من اختلاف الرواة المتتابعين ، فقد يكون المصدر الأصلي أنس بن مالك أو ابن إسحاق أو غيرهما ، ولكن الروايات التي تنسب إليهم تتعدد مع اختلاف الرواة ، فترى أن كل راوية يركز روايته على أمر دون غيره ، وهو مأسوف نوضحه عندما نتناول الروايات الكثيرة التي قيلت في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي .

والواقع أن مثل هذه الأمور ، أي زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية أو بزينب بنت جحش أو بعائشة ليس تاريخا بقدر ما

هو سيرة ، حيث يقتصر دور المشتغلين بها على النقل والرواية دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة تمحيص ما يروونه والنحقيق من صدفه ، أو على الأقل مدى اتفاهه مع ما عرف من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعدم مخالفة ما ورد به لمبادئ الإسلام وأحكامه ، بل للاتساق الشديد بين تصرفاته وأفعاله ، بحيث لانهجه ينصرف بطريقه مغايرة لما سبق أن تصرف به بالنسبة لحالة مماثلة للحالة التي تصرف حيالها .

وعلى الرغم من أن أول من اشتغلوا بهذا الفن كانوا محدثين ناقلين ، فإن الذين جاءوا من بعدهم لم يهتموا بتمحيص الروايات ونقد الأخبار ، وإنما اكتفوا بالجمع والتبويب ، ولم يوجهوا اهتماما يذكر إلى التحليل والنقد : ففي البداية والنهاية لابن كثير نرد الروايات الكثيرة والمختلفة بشأن أمر واحد دون أن يحاول إجراء مقارنة بينها وكشف مافد يوجد بينها من تعارض . وربما يرجع ذلك إلى أن نظرة هؤلاء إلى السيرة كانت تتسم بالتفديس ، مما جعلهم يتورعون عن التعرض لما فيها من مبالغات وتناقضات وأخبار غير حقيقية من شأنها أن تسيء إلى الإسلام أشد الإساءة . وهو ما استغله المؤرخون الغربيون فعلا فيما وضعوه من كتب اعتمدوا فيها للإساءة إلى الإسلام على الروايات والأخبار غير الصحيحة التي اشتملت عليها كتب السيرة ، بل وكتب التاريخ التي نقلت عنها : من ذلك ما ذكره المؤرخ الإنجليزي (هـ . ج ويلز) في كتابه معالم تاريخ الإنسانية عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيي بن أخطب فهو يقول : « وكانت صفية - إحدى زوجاته - يهودية نزوجها ليلة

المعركة التي قبض فيها على زوجها وقتل . إذ استعرض السبايا في آخر النهار فراقت في نظره وحملت إلى خيمته . وسوف نرى أن هذا الذي قاله (ويلز) ليس إلا ترديدا لما ذكره المؤرخون والمفسرون المسلمون في كتبهم . فـ (ويلز) لم يفتر على الإسلام ولم يتعمد الكذب فيما قاله ؛ لأنه — والحق يقال — أنصف الإسلام فيما كتبه عنه مما أُلِّمَّ به الإماما سليما ، وحاول أن يعطيه حقه وهو يؤرخ له في كتابه ، وإن لم نسعفه المادّة التي جمعها ، وكثير منها استقاه من مصادر غير إسلامية ، وبالذات من كتب المستشرقين الذين افتروا على الإسلام ، فنقل افتراءاتهم التي منها على سبيل المثال أن الإسلام انتشر بالسيف ، أما هذه القرية ، أى مافعله الرسول عند فتحه لخبر من قتله لزوج صفية ، ثم زواجه بها — فإننا نجد ما هو أشد منها إسفافا وفجاجة فيما رواه الرواة عن هذا الموضوع .

الروايات التي قيلت في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية :

هناك أكثر من عشر روايات قيلت في هذا الموضوع سنعرضها فيما يلي ، ثم نقارن بين ماورد فيها ونمحصها وننقدها توصلا إلى الحقيقة التي نتفق مع أحكام الإسلام وأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم . وسنبداً بالرواية التي وردت في البخارى باعتباره أكثر المصادر من حيث الثقة فيه . فقد ذكر البخارى بخصوص فتح خير مايلي :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس

الرواية الأولى

ابن مالك قال : صلى النبي الصبح قريبا من خير بغلس ثم قال : الله أكبر خربت خير ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين . فخرجوا يسعون في السكك ، فقتل النبي المقاتلة وسبى الذرية ، وكان في السبى صفية ، فصارت إلى دحية الكلبي ، ثم صارت إلى النبي ، فجعل عتقها صداقها . ورواه مسلم أيضا من حديث حماد وله طرق عن أنس .

وهكذا نلاحظ أن مارواه أس هنا يشتمل على ذكر الوقت الذي شرع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم في الهجوم على خير ، وهو الغلس (بعد صلاة الفجر) كما ذكر المعركة التي دارت ، ومن وصفه الشديداً الافتضاب يخيّل للمرء أن الأمر لم يستغرق إلا ساعات قليلة ، وأن هزيمة اليهود تمت بسهولة شديدة . فالمسلمون خرجوا يسعون في السكك يقتلون اليهود هكذا ببساطة ، وكأنهم كانوا عزلا من السلاح ، أو على أكثر تقدير أن بعضهم قاتل دفاعا عن نفسه ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم وسبى الذرية التي كانت فيها صفية ، فأخذها دحية الكلبي ، ثم أخذها النبي منه فجعل عتقها صداقها وتزوجها ، وانتهى الأمر في يوم أو بعض يوم . ولسنا نلوم أنسا الذي روى الأمر على هذا الوجه ، فهو لم يكن يقصد إلا أن يذكر ماقاله الرسول عند فتح خير . كذلك لانلوم « البخاري » ؛ فهو ليس مؤرخا وإنما هو جامع أحاديث يرويها كما سمعها ، وكذلك مسلم وغيرهما من أصحاب الصحاح . وإن كان الأصح أن يقال إنه عندما همّ الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح خير صلى الصبح ثم قال كذا ،

دون الحديث عن المعركة التي دارت رحاها بين المسلمين واليهود .
ولكن يبدو أن أنساً رضى الله عنه أراد بروايته الأمر على هذا الوجه
أن يبين ماكان لقول الرسول صلى الله عليه وسلم من أثر في سير
المعركة ومطابقة ماحدث لما قاله عن سوء صباح المنذرين ، فكأنما
المعركة نشبت في الصباح وحسنت بسرعة حسناً تنبأ الرسول .
وهذا ليس بشرط فقد كان يكفي أن تنذر النذر الأولى لسير المعركة
بهزيمة اليهود في المدى الطويل .

الرواية الثانية :

وإسناد هذه الرواية ينتهى إلى أنس بن مالك أيضا ، وقد رواها عنه
أحمد بن عيسى حدثنا ابن وهب أخبرني يعقوب بن عبد الرحمن
الزهرى عن عمرو مولى المطلب عن أنس قال : قدمنا حير ، فلما
فتح الرسول الحصن ذكر له جمال صفية بنت حبي بن أخطب وقد
قتل زوجها وكانت عروسا ، فاصطفأها النبي لنفسه ، فخرج بها
حتى بلغ بها سد الصهباء حَلَّتْ . فبنى بها رسول الله ، ثم صنع حيسا
ثم نطع صغير ثم قال لى : آذن من حولك فكانت تلك ولبته على
صفية ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت النبي يخوى لها وراءه بعباءة ، ثم
يجلس عند بعيره ، فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى
تركب . تفرد به دون مسلم .

وأول ما نلاحظه على هذه الرواية هو اختلاف الرواة ، فهم غير
الذين رووا الرواية الأولى . كذلك نلاحظ اختلاف المضمون ، فهنا

يرد ذكر فتح الحصن ، بعكس الرواية السابقة التى تتحدث عن سعى المقاتلين فى السكك . كما يحتفى هنا دحية الكلبي الذى كان أول من أخذ صفية من السبي ، ويرد ذكر لكلام قيل للرسول عن جمال صفية بنت حبي ، وكان زوجها قد قتل وكانت عروسا فاصطفاه لنفسه ، فخرج بها حتى بلغ بها سد الصهباء حيث كانت قد حُلَّتْ أى أصبحت حلالا يجوز له أن يتزوجها ، فدخل بها ثم أقام وليمته لمن معه ، ويزعم الرواة أن أنسأ قال : إنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يجلس عند بعيره فيضع ركبته وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب البعير .

وهذه الرواية غريبة وعجيبة من حيث إنها تقتصر على ذكر أمور ليست ذات أهمية إلا من وجهة نظر بعض من رووها ، ثم إنها تهمل كثيرا من الأمور الهامة أو تحتزلها اختزالا معيبا ، فهى تذكر أن النبى فتح الحصن ، فكأنه لم يكن بخير سوى حصن واحد فى حين أن الروايات الأخرى تذكر حصونا كثيرة ، واحد منها هو الذى كانت فيه صفية ، وهو لم يكن آخر مافتح من الحصون حتى يقوم الرسول صلى الله عليه وسلم بحمل صفية والخروج بها إلى سد الصهباء . ومما يزيد الأمر سوءاً أن ذكر هذا الخروج سبقه قول الرواة إنه قد ذكر للرسول جمال صفية مما يجعل المرء يتصور أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يهتم بجمال النساء ، فلا يكاد يسمع عن امرأة جميلة حتى يبادر فيستولى عليها أو يصطفئها لنفسه ، ويترك القتال ليتزوج بها ، تماما كما يحدث فى الأفلام السينمائية . وهذا إسفاف من الرواة يضاعف

منه فولهم إن ذكر جمال صفية للرسول كان بعد مقتل زوجها الذى كان قد تزوجها حديثا ، أى أنها كانت عروسا . وهو كلام لا يمكن أن يتصور المرء حدوثه من الرسول الكريم الذى لم يكن يسمح بالحديث عن امرأة وذكر جمالها بهذه الصورة التى توحى بتفاهة تفكير أصحابه الذين كانوا مشغولين بالحرب والقتال والاستشهاد فى سبيل الله ، فكيف بهم يتركون الحديث عنها إلى الحديث عن جمال النساء . ومن هم هؤلاء الرجال الذين كانوا يقبلون على مثل هذه الأحاديث أو حتى يجرعون على الخوض فى هذه الأمور أو يفاتحون فيها النبى ؟ أ هم أبو بكر وعمر وطلحة وعلى والزبير أم من ؟ إنه كلام فارغ لا يصدر إلا عن عقول فارغة مثل عقول الرواة المتأخرين الذين تأثروا فى نقلهم للروايات بما كان قد ساد المجتمع الإسلامى من أخلاقيات تتساهل إزاء الحديث عن النساء وجمالهن وغير ذلك ، وليس أصحاب الرسول الذين كانوا يعلمون أن النظر إلى النساء خطيئة وأن هناك ما يسمى بزنى النظر . أما أن يجلس الرسول على الأرض لتضع صفية قدمها على ركبته لكى تركب البعير فهذا إسفاف آخر لا يقل عما سبقه ، فما كان الرسول ليفعل ذلك ولو لمساعدة امرأة على ركوب البعير ، فهناك طرق أخرى كثيرة يمكنه أن يلجأ إليها لمساعدة صفية على ركوب البعير ، صحيح أنه كان يحمل السيدة عائشة على كاهله لكى يُمكّنها من مشاهدة الأحباش أثناء تقديمهم لعروضهم فى المدينة ، ولكن أين صفية من عائشة بنته أى بكر رضى الله عنه .

الرواية الثالثة :

وإسنادها إلى أنس بن مالك أيضا . يقول البخارى : « حدثنا

سعيد ابن أبى مریم حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير أخبرنى حميد أنه سمع أنساً يقول : أقام رسول الله بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية فدعوت المسلمين إلى وليته وما كان فيها من خبز ولحم وما كان فيها إلا أن أمر بلالا بالأنطاع فبسطت ، فألقى عليها التمر والأقط والسمن فقال المسلمون إحدى أمهات المؤمنين أو ما ملكت يمينه ؟ فقالوا إن حَجَبَهَا فهي إحدى أمهات المؤمنين وإن لم يَحْجُبْهَا فهي مما ملكت يمينه . فلما ارتحل وطأ لها خلقه ومد الحجاب . انفراد به البخارى .

وهنا أيضا يختلف الرواة ، فليس بينهم أحد ممن ورد اسمه فى الروايتين السابقتين ، مما يوحى بأن أنساً رضى الله عنه لم يكن له من هم إلا أن يروى للناس ما حدث من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتكلم عن جمال صفية ، وأخرى يتكلم عن الوقت الذى قضاه الرسول فى الدخول بها ، وقد زعموا أنه قال إن الرسول أقام ثلاث ليال بين خيبر والمدينة لهذا الغرض ، وكأنه ليس وراءه دعوة يضطلع بمسئولياتها الجسيمة ومن حوله أعداء يتربصون به الدوائر ووَخَى ينزل عليه بآيات القرآن الكريم ، ومقاتلون تركوا أسرهم ويوتهم أياما طويلة ، وتحملوا مشقة القتال ، ويرغبون فى العودة إلى وطنهم ، ليطمئنوا على ذريتهم ويطمئنوهم عليهم .

وفى ما ذكره ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق ما يدحض هذه الرواية فهو يقول : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر انصرف إلى وادى القرى ، فحاصر أهله لىالى ، ثم انصرف راجعا إلى المدينة .

وكانت الأخطار تهددهم في طريقهم إلى وادى القرى ، فلم تكن الرحلة رحلة ترويح أو زواج يستمر ثلاث ليال : ففى ابن هشام أيضا عن أبى هريرة ، قال : فلما انصرفنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير إلى وادى القرى نزلنا بها أصيلا مع مغرب الشمس ، ومع رسول الله غلام له ، أهداه له رفاعة بن زيد الجذامى ، ثم الضبيى ، قال : فوالله إنه ليضع رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه سهم غرب فأصابه فقتله ، فقلنا : هنيئا له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا ، والذي نفس محمد بيده ، إن شملته الآن لتحترق عليه فى النار ، كان غلها من فئء المسلمين يوم خير . قال : فسمعها رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتاه فقال : يارسول الله ، أصبت شراكين لنعلين لى ، قال : فقال يُقَدُّ لك مثلهما من النار .

كذلك فإن من يقرأ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى ثلاث ليال بينى بصفية يرد على خاطره على الفور خاطر مماثل لما يرد الآن متعلقا بما نسميه « شهر العسل » الذى يقضيه العروسان معا فى إجازة طويلة يستمتعان ويلهوان ويمرحان ولايباليان . كل ما فى الأمر أن الرسول صلى الله عليه وسلم اختصرها إلى ثلاث ليال فقط قضاهها مع عروسه الجميلة التى جعله جماها ينتزعها من دحية الكلبي الذى كانت له أول الأمر . وهذا خيال مريض أو على الأقل جهل فاضح بما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم . أو نسيان لأحواله وسلوكه . فقد كان يقضى الليل قائما ، ويستيقظ فجرا ليصلى ، ثم يعمل فيما كلفه الله سبحانه وتعالى إياه . ومما يدل على أنه لم يقض

ليلة من هذه الليالي المزعومة مختليا بعروسه يرح ويلعب ويستمتع بها - ما ذكره ابن هشام، قال ابن إسحاق، وحدثني الزهري عن سعيد بن المسيب، قال: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر، فكان ببعض الطريق، قال من آخر الليل: من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك، فنزل رسول الله، ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ماشاء الله عز وجل أن يصلي. ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه، فنام، فلم يوقظهم إلا مس الشمس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول أصحابه هب، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟ قال يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك، قال: صدقت، ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير، ثم أناخ فتوضأ، وتوضأ الناس، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة، فصلى رسول الله بالناس، فلما سلم أقبل على الناس فقال: «إِذَا نَسِيتُمُ الصَّلَاةَ فَصَلُّوْهَا إِذْ ذَكَرْتُمُوهَا فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي»^(١) وهكذا يتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقض الليل يباشر صفيه، بل قضاه يصلي ثم نام، والدليل على هذا أنه لما استيقظ توضأ ولم يغتسل، فلو أنه كان قد باشرها لاغتسل من الجنابة؛ لأن الاغتسال شرط للطهارة، فقد روى عمرو بن العاص أنه لما أصابته الجنابة في غزوة ذات السلاسل، وكانت ليلة باردة فتيمم، وصلى بأصحابه، بالتيمم، ولما رجعوا

(١) آخر الآية ١٤ من سورة طه

ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ياعمرو أصليت بأصحابك ، وأنت جنب ؟ » فقال : يارسول الله إني سمعت الله يقول ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) فضحك ، ولم يقل شيئا . وقد كانت غزوة ذات السلاسل في الشتاء ، أما غزوة خيبر فكانت في الصيف ، والماء متاح مما يستبعد معه أن يكون الرسول قد نيم ، بل النابت أنه قد توضأ . وهذا دليل قاطع على أنه لم يياشر صفية في هذه الليلة ، مما ينفي أن نكون النبالى الثلاث التى قضاها بعد الخروج من خيبر ليالى بناء .

وكل مايمكن الخروج به من الرواية انثائه أن المسلمين كانوا يتخذون من حجب الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة علامة يفرقون بها بين من كانت زوجته ومن كانت ملك يمينه . وحتى هذه لا أهمية لها ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن لديه من هى ملك يمينه غير ريحانة بنت عمرو بن جنانة إحدى نساء بنى عمرو بن قريظة ، ولم يتكرر منه ذلك حتى يعد علامة يستدلون بها على مقصده . وحتى إذا تجاوزنا عن ذلك واعتبرنا أن ما قيل في هذا الصدد كان صحيحا فإنه يعد كذلك بالنسبة للعامة دون الخاصة أى لمن لم يكونوا يطلعون على أحوال الرسول ونصرفانه عن قرب ؛ لأن الحجاب وحده لا يكفى للقول بأن امرأة ما قد أصبحت زوجة للرسول ، وإنما يجب أن يتم العقد . والملاحظ أن الذين رروا هذه الرواية عن أنس قالوا إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام بين خيبر والمدينة ثلاث ليال يبنى عليه بصفية ، أى أنه كان قد دخل بها وأن حجبها كان بعد

(٢) جرة من الآية ٢٩ من سورة النساء

الزواج وليس قبله ، ولكنهم لم يعلموا به لأنهم لم يكونوا حاضرين وقت العقد ، ومن هنا كان تساؤلهم .

الرواية الرابعة :

ذكر الطبرى هذه الرواية فى تاريخه حيث قال : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال : ولما فتح الرسول صلى الله عليه وسلم القموص حصن ابن أبى الحقيق أبى رسول الله بصفية بنت حُيَّ بن أخطب ، وبأخرى معها ، فمر بهما بلال - وهو الذى جاء بهما - على قتلى من قتلى يهود ، فلما رأتهما التى مع صفية صاحتا وصكت وجهها وحتت التراب على رأسها ، فلما رآها رسول الله قال أغربوا عنى هذه الشيطانة ، وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفأها لنفسه ، فقال رسول الله لبلال فيما بلغنى حين رأى من تلك اليهودية ما رأى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ وكانت صفية قد رأت فى المنام وهى عروس بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق أن قمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها ، فقال ما هذا إلا لأنك تمنين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها ، فألقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أثر منها ، فسألها ما هو؟ فأخبرته هذا الخبر .

ونلاحظ على هذه الرواية ، وهى رواية مؤرخ أنه كانت هناك معركة جرى فيها الاستيلاء على أحد حصون اليهود فى خيبر ، واسمه

حصن القموص الذى كان لأحد زعماء اليهود واسمه ابن أئى الحقيق ،
وفيه وجدت صفية بنت حى بن أخطب وفتاة أخرى يقال إنها ابنة
عم لها ، فأحضرهما بلال حيث مر بهما على بعض قتلى اليهود ، فلما
رأتهم التى مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على
رأسها . وعندئذ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم صفية ، فأمر بها
فحيزت خلفه ، ويبدو أنه كان يركب دابته ، وألقى عليها رداءه
فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه . وهذه الرواية كما نرى ،
شديدة الاقتضاب إلى درجة مخلة ، كما أن فيها تناقضا واضحا ؛ إذ
كيف يغضب الرسول عندما يرى ابنة عم صفية تبكى قتلاها ،
ويقول أغربوا عنى هذه الشيطانة وهو الذى يعرف جيدا أن الحزن
على القتلى من الأهل والأقارب أمر طبيعى لا يختلف فيه إنسان عن
إنسان ؟ وكيف يصف المرأة بأنها شيطانة وهو الذى نبى عن لعن
الحيوانات ؟ ففى مسلم أن عمران بن الحصين قال : بينا رسول الله
صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة
تضجرت ، فلعتها ، فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال : خلوا ماعليها ودعوها فإنها ملعونة ، قال عمران : فكأنى
أراها الآن تمشى فى الناس مايعرض لها من أحد . وكان ذلك زجرا
للمرأة ولغيرها ، وكان قد سبق نهيها ونهى غيرها عن اللعن فعوقبت
بإرسال الناقة .

وهذا لايتعارض مع الحديث الذى ورد فيه أن الرسول صلى الله
عليه وسلم قد لعن اثنين ، ففى مسلم عن عائشة قالت : دخل على
الرسول صلى الله عليه وسلم رجالان فكلماه بشيء لا أدرى ما هو

فأغضباه ، فلعنهما وسبهما ، فلما خرجا قلت : يارسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان ، قال وما ذاك ؟ قالت : قلت لعنتهما وسببتهما ، قال أو ماعلمت ما شارطت عليه ربي ؟ قلت : اللهم إنما أنا بشر ، فأى المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا .

فما يزعم أنه حدث منه لصفية وابنة عمها لايقاس على ماحدث منه للرجلين حيث إنهما أغضباه ، أما صفية وابنة عمها فلم تغضباه ، حتى ولو كانت ابنة عمها قد بكّت وحثت التراب على رأسها فإنها ما فعلت ذلك إلا حزبا على أهلها الذين قتلوا في الحرب . ومما يؤيد ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة أنه قال : قيل يارسول الله اذعُ على المشركين ، قال : إني لم أُبعثُ لَعَّانا وإنما بُعثتُ رحمة .

كذلك فإن هناك تناقضا آخر في الرواية ، فبعد أن لعن الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة لام بلالا ؛ لأنه مر بالمرأتين على قتلاهما ، وسأله إذا كانت قد نزعت منه الرحمة ؟ ومعنى هذا أن الرسول يعلم أن في مرور الناس على قتلاهم عذاب ، وهو نقيض الرحمة . فكيف به ينكر على من يتعذب أن يصرخ ويخثو التراب على رأسه وهو الذى دفعه الحزن على عمه حمزة إلى أن يتوعد المشركين ، فقد روى ابن كثير في تاريخه عن محمد بن جعفر بن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال « ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم » .

ثم الأدهى من كل ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى هذا

الموقف المأساوى بين قتلى اليهود وبكاء أقاربهم وعويلهن يأخذ إحدى نساءهم خلفه ويحوزها لنفسه ، ويضع عليها رداءه ، هل هذا معقول ؟!

الرواية الخامسة :

روى هذه الرواية مؤرخ هو ابن الأثير فقال : روى أس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وجمع السبي ، أنه دحية الكلبي فقال : أعطني جارية من السبي . قال : اذهب فخذ جارية فذهب فأخذ صفية . قيل : يارسول الله ، إنها سيده قريظة والنضير مانصلح إلا لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ جارية من السبي غيرها . وأخذها رسول الله واصطفأها ، وحجبها وأعتقها وتزوجها وقسم لها ، وكانت عاقلة من عقلاء النساء .

وهذه الرواية لا نذكر شيئا عن المعركة التي دارت رحاها ، وأسفرت عن سبي صفية فيمن جرى سبيهن من النساء ، ولكنها تذكر شيئا آخر خاصاً بالكيفية التي تعرف بها الرسول على صفية ، ويبدو أن الأمر في حصول المقاتلين على السبايا لم يكن متروكا لهم ، يأخذون منهم ما يصادفهم من النساء بل إنهم كن يُجمَعْنَ معا في مكان ، ثم يجرى توزيعهن على من يرغب أو بحسب الاختيار . فهذا هو دحية يطلب من الرسول أن يعطيه جارية من السبي ، فيقول له اذهب فخذ جارية . وهذا يعنى أن يذهب إلى حيث تتجمع السبايا

ليأخذ إحداهن . يؤيد ذلك ما ذكره ابن هشام نقلا عن ابن إسحاق من أنه كان هناك رجل يسمى « صاحب المغام » الذى جعل عليها . والرواية تقول : قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم ، عن عبد الله ابن مغفل المزنى ، قال : أصبت من فَيءٍ خير جراب شحم ، فاحتلمته على عاتقى إلى رحلى وأصحابى . قال : فلقينى صاحب المغام الذى جعل عليها ، فأخذ بناحيته وقال : هلم هذا نقسمه بين المسلمين ، قال : قلت : لا والله لا أعطيكه ، قال : فجعل يجاذبنى الجراب قال : فرآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نصنع ذلك . قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضاحكا ، ثم قال لصاحب المغام : لا أبا لك ، خل بينه وبينه . قال : فأرسله ، فانطلقت به إلى رحلى وأصحابى ، فأكلناه . فإذا كان هذا قد حدث فى المغام فإن حدوثه فى السبايا أولى .

ولكن العريب فى هذه الرواية ماورد فيها من أنه بعد أن أخذ دحية الكلبي صفيه قال بعضهم للرسول « إنها سيدة قريظة والنضير ، ماتصلح الا لك » فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن أمر دحية أن يدعها ويأخذ سبياً أخرى غيرها ثم أخذها لنفسه . فهنا يظهر الرسول كما لو كان ملكا أو زعيما يرى نفسه أجدرَ بِنِباتِ السادة من غيره ممن يرأسهم من المقاتلين ، فلا يكاد يسمع من بعضهم أن صفيه ماتصلح إلا له حتى يستجيب فيأخذها من دحية . وماهكذا كانت أخلاق الرسول الذى زوج ابنة عمته لخادمه على الرغم من الاختلاف الشديد فى انتائهما الطبقي ، فلا يمكن أن نتصور أنه يخالف مبدأه هذا

من أجل صفة وهى سبى يهودية وليست من قرياته كما كانت زينب بنت جحش .

وتروى هذه الرواية بنفس مضمونها ، ولكن بإسناد آخر ، وإن كانت ترجع فى آخر الأمر إلى أنس بن مالك أيضا . قال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا حماد بن زيد عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك قال : صارت صفة لدحية الكلبي ، ثم صارت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال أبو داود بنفس الإسناد ، جمع السبى - يعنى بخير - فجاء دحية فقال : يا رسول الله أعطني جارية من السبى قال : اذهب فخذ جارية ، فأخذ صفة بنت حبي ، فجاء رجل إلى رسول الله فقال : يا نبي الله أعطيت دحية صفة بنت حبي سيدة قريظة والنضير ما تصلح إلا لك . قال : ادعوا بها ، فلما نظر إليها النبي قال : خذ جارية من السبى غيرها . وإن رسول الله أعتقها وتزوجها . وأخرجاه من حديث ابن عليه .

ونلاحظ على هذا الحديث الذى كان آخر من رواه أبو داود أنه قال مرة حدثنا مسدد عن حماد بن زيد ، وقال فى الثانية حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدثنا ابن عليه . فكأن أبا داود سمع الحديث مرتين ، مرة من مسدد الذى سمعه من حماد بن زيد ، والثانية من يعقوب بن إبراهيم الذى سمعه من ابن عليه الذى سمعه من عبد العزيز بن صهيب ، وهذا سمعه من أنس .

أما من حيث اختلاف الحديث السابق ؛ فلأنه يضيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قال له الرجل : إنها سيدة قريظة والنضير ، ما

تصلح إلا له قال : ادعوا بها ، فلما نظر إليها النبي قال لدحية : خذ جارية من السبي غيرها .. ومعنى ذلك أنه لم يكتف بما قيل له عن نسبها الرفيع ، بل أضاف إلى ذلك النظر إليها . فلماذا فعل ذلك ؟ ليس هناك شك في أنه فعله من أجل أن يرى ما إذا كانت جميلة أم لا ، فلما رآها كذلك أخذها لنفسه . وهذا مانستبعد أن يكون الرسول قد فعله ؛ لأنه مما علمناه عن زيجاته السابقة - لم يكن يعرض على أن يرى المرأة التي سيتزوجها ؛ لأنه كما قال في حديثه يهتم بالخلق والدين ، ويوصي الشباب بأن يقيموا اختيارهم لزوجاتهم على هذا الأساس . فإذا كان الأمر كذلك فما باله هو يخالف هذا الأمر وبصر على رؤية صفية على الرغم مما قيل عن حسبها ونسبها ؟ ثم ماذا يكون موقفه وهو يتفحص امرأة من السبي أمام أصحابه ، وفيهم عمر وعلى وطلحة وغيرهم من أصهاره وأقاربه ، فضلا عن كونه النبي القدوة . وماذا لو كانت صفية ليست جميلة ؟ هل كان سيردها إلى دحية فيبدو الأمر وكأنه معرض تعرض فيه النساء على النبي ليختار منهن من تحلو في عينيه ؟

أما الرواية السادسة ، وهي عن أنس أيضا ففيها ، قال أبو داود : حدثنا محمد بن خلاد الباهلي ، حدثنا بهز بن أسد ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا ثابت عن أنس قال : وقع في سهم دحية جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله بسبعة أرؤس ثم دفعها إلى أم سلمة تصنعها وتهيبها ، قال حماد وأحسبه (يعني تابتا) قال : وتعتد في بيتها صفية بن حبي . تفرد به أبو داود .

ونلاحظ على هذه الرواية التي رواها أبو داود أن بينه وبين أنس ابن مالك أربعة من الرواة ليس بينهم واحد ممن سمع منهم أبو داود الحديث السابق ، اللهم إلا إذا كان حماد بن سلمة هو نفسه حماد بن زيد الذي ورد اسمه في الحديث السابق ، كما ورد في الحديث الأول المنسوب إلى مالك أيضا . فإذا كان أبو داود قد سمع أكثر من حديث في الموضوع ، ولمس ما بين بعض عناصرها من تناقض فكيف لم يحاول أن يتحقق من أيهما أصح وأصدق ؟ مثال ذلك أنه في الحديث السابق الذي رواه بطريقتين فجاء في الأول مجملا - لم يبين كيف انتقلت صفة من دحية الكلبي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، في حين أنه بين في الثاني أنها انتقلت عن طريق البذل ، حيث أخذها الرسول منه وأمره أن يأخذ جارية أخرى غيرها . أما في هذا الحديث فإن أبا داود يقول : إن الرسول اشتراها من دحية بسبعة أرؤس ، فأيهما أصح ؟ وهل يتصور من أنس - وهو الذي أسندت إليه هذه الأحاديث كلها - أن يقول مرة إن الرسول أخذها وأعطى دحية جارية غيرها ، وأن يقول مرة أخرى إنه اشتراها منه بسبعة أرؤس ؟

أما الرواية السابعة وقد أوردها ابن الأثير أيضا فقد جاء فيها : « أخبرنا أبو جعفر بإسناده عن يوسف عن ابن إسحاق قال : حدثني والدي إسحاق بن يسار قال : لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص - حصن ابن أبي الحقيق - أتى بصفية بنت حبي ومعهما ابنة عم لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أغربوا هذه الشيطانة عني ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية فحيزت خلفه ، وغطى عليها بثوبه ، فعرف الناس أنه قد اصطفاها

لنفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال حين رأى من اليهودية مارأى : يا بلال ، أنزعت منك الرحمة حتى تمر بامرأتين على فتلاهما ؟

وهذه الرواية تطابق ما ذكره الطبري في تاريخه مع اختلاف في الرواة ، فبينما ترد في الطبري أسماء ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحاق ، فإنها ترد في ابن الأثير منسوبة إلى أبي جعفر عن يونس عن ابن إسحاق . وهذا معناه أن أكثر من شخص رووا عن ابن إسحاق ما رواه هو عن أبيه إسحاق بن يسار . كذلك نجد في روايات ابن حميد ، فهل هو أحد أبناء حميد الذي ورد اسمه في الرواية الثالثة التي جاءت في البخاري أو أنه شخص آخر؟ والملاحظ أننا نجد اسم (ابن حميد) يتكرر في الرواية الرابعة التي ذكرها الطبري حيث قال (حدثنا ابن حميد) فمع أن الروايتين الرابعة والسابعة ترجعان إلى ابن إسحاق إلا أن رواتهما عنه يختلفون في الطبري عنهم في ابن الأثير .

تحليل مضمون الروايات

وهكذا نلاحظ أننا من بين عشر روايات قيلت في زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية بنت حيى بن أخطب — برى ثمانى روايات منها نسبت إلى أنس بن مالك في حين نسبت اثنتان إلى ابن إسحاق . كذلك نلاحظ — بالنسبة للروايات التي قيل إن إسنادها يرجع إلى أنس — أن أربعاً منها ذكرت أن صفية كانت لدحية الكلبي أولاً ، ثم أخذها منه ، وذلك نظير جارية أخرى . أو نظير عدد من الرعوس ، هذا فضلاً عما اشتملت عليه الروايات من حشو ولغو لا فائدة منه ولا نظن أنه مما يتصور حدوثه من الرسول صلى الله عليه

وسلم . أما الحديتان المنسوبان إلى ابن إسحاق فيبدو أنهما أقرب إلى الصحة وأدنى إلى الصواب مما أسند إلى أنس . والدليل على ذلك أن ابن هسنام^(٣) اقتصر على ذكر ما قاله ابن إسحاق في هذا الشأن ، ولم يذكر شيئاً مما قيل منسوباً إلى أنس بن مالك . فهو يقول تحت عنوان « أمر صفية أم المؤمنين » قال ابن إسحاق : ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم القموص ، حصن بن أبي الحقيق ، أتى رسول الله بصفيّة بنته حبي بن أخطب وبأخرى معها ، فمر بهما بلال — وهو الذى جاء بهما — على فتلى من قتلى يهود ، فلما رآها رسول الله قال : أغربوا (أبعدوا) عنى هذه الشيطانة ، وأمر بصفيّة فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فعرف المسلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله لبلال ، فيما بلغنى ، حين رأى بتلك اليهودية مارأى : أنزِعَتْ منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ وكانت صفية قد رأت في المنام وهى عروس بكناة بن الربيع بن أبي الحقيق ، أن فمرا وقع فى حجرها ، فعرضت رؤياها على زوجها ، فقال : ما هذا إلا لأنك تمين ملك الحجاز محمداً ، فلطم وجهها لطمه اخضرت عينها منها . فأتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها أتر منه ، فسألها ماهو ؟ فأخبرته هذا الخبر .

وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأخذ صفية من دحية الكلبي ، وما كان ليأخذها لو أنها كانت قد صارت إليه مهما

(٣) السيرة النبوية ج ٣ - ٤ صفحہ ٣٣٦ .

كانت الأسباب ؛ لأنه كان أعظم وأكبر من أن يسلك مثل هذا السلوك الذى ينتزه عنه من هو أدنى منه مكانة ورجولة وشرفا ، حتى ولو كانت صفة هى أجمل نساء عصرها أو أكرمهن حسبا ونسبا . فمن حيث الجمال فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صادف بلا شك نساء أخريات جميلات فيما قام به من غزوات وما أكثرها . فليس من المعقول أنه من بين مئات النساء اللاتي سبين لم توجد من تضاهى صفة جمالا أو تزيد عليها . أما النسب والحسب فلا نظن أن الرسول كان يهيمه مثل هذا الأمر فى كثير أو فى قليل ، وخاصة إذا كان مصدره اليهود ، فضلا عن أنه لم يكن بحاجة إلى نسب يدعم به دينه أو إلى حسب يزيد به من نفوذه وقوته . وما كان العرب - سواء قبل الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعده - يفاخرون بمصاهرة اليهود أو حتى يهتمون بقيام هذه المصاهرة . حتى ولو أن اليهود كانوا مجتمعاً مغلقاً لا يتزوج أفرادهم ذكورا وإناثا من خارجه . فعلى خلاف ما حدث من قيام علاقات حب بين بعض المسلمين ونساء مسيحيات ذكرتها الكتب ، لم نقرأ أن شيئا من هذا القبيل حدث مع نساء يهوديات ، وذلك لنفور طباع المسلمين ومن قبلهم العرب منهم بسبب راجع إلى بخلهم وشحهم ومكابرتهم وضيق أفقهم وعنادهم وميلهم إلى استغلال الآخرين ، وإلى ماكانوا يمارسونه من فوادة وإدارة لبيوت البغاء .

تفنيد تهمة عدم استبراء الرسول لصفية

أما فيما يتعلق بما قيل من أن الرسول صلى الله عليه وسلم « تزوج صفية بنت حبي بن أخطب ليلة المعركة التى قُبِضَ فيها على زوجها

وقتل». إذ استعرض السبايا في آخر النهار - فراقت في نظره وحملت إلى خيمته». وهو ما قاله (هـ . ج . ويلز) فإنه يفهم منه بشكل واضح ومباشر أن الرسول تزوج صفية دون أن تستبرى . ولعل الذى جعل (ويلز) يقول ذلك هو جهله بأحكام الإسلام في هذا الصدد من ناحية ، وما غلب على ظنه من أن طريقة المسلمين في معاملة السبايا هى نفس طريقة الغزاة والمحاربين الغربيين ، سواء فى العصور السابقة للمسيحية ، أو فى العصور التالية لها ، حيث اعتاد المنتصرون الاستيلاء على نساء المهزومين ومعاشرتهن جنسيا فى الحال شئن أم أين ، وقد يتركوهن بعد ذلك ليعتدوا على نساء أخريات قد لا يَكُنَّ من السبايا . وفى النهاية يتركون الجميع للضياع والفساد ؛ لذلك تصور أن النبى صلى الله عليه وسلم فعل مع صفية ما كان يفعله قادة الجيوش المنتصرة فى الغرب ، فإنها لما أعجبتة وراقت فى نظره حملت إلى خيمته !! فكأن الرسول قد أمضى وقته يتفحص السبايا باحثا عن أجملهن وأكثرهن فتنة وأنوثة وشبابا . وكما قلنا فإن وقوع الأمر على هذا الوجه لا يصدم مشاعر القارئ الأوربى العادى ؛ فليس هناك غرابة فى أن يتزوج الرجل الغربى أو يعاشر امرأة بأى كيفية دون أدنى حاجة إلى التأكد من خلوها من الحمل . ولكن القارئ المتخصص والعالم والمستشرق وغيرهم ممن لديهم علم أو حتى مجرد إلمام بأحكام الإسلام فى شأن الزواج لاشك أنهم سوف يعتبرون هذا الذى قيل إنه حدث من الرسول مخالفة صارخة لهذه الأحكام يدللون بها على عدم التزام الرسول صلى الله عليه وسلم بأحكام الدين الذى جاء به ويتخذونه حجة يؤيدون بها مزاعمهم بأنه هو واضع

هذا الدين وليس متلقيه بالوحي من الله تعالى ؛ ولذلك فإنه كان يخالفه إذا صادف موقفا تكون مصلحته فيه أو هواه مناقضا لما فرضه من أحكام .

وكما سبق أن قلنا ، فإن عدم وضوح ما قاله معظم المؤرخين وكتاب السيرة المسلمون عن زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية وعدم بيانهم للمدة التي انقضت بين سببها وزواجه منها — يجعل من يقرأ لهم يعتقد أن الأمر قد تم كما صورته (هـ . ج . ويلز) أى أن غزوة خيبر قد بدأت وانتهت في نفس اليوم وفي المساء تزوج الرسول بصفية . وهو ماسبق أن أخذناه على الرواية الأولى التي ذكرها البخارى منسوبة إلى أنس بن مالك . وكذلك الرواية الثانية . والعريب حقا أن يهتم أنس في الرواية الثالثة بذكر المدة التي أقام فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بينى عليه بصفية ، أى يدخل بها والتي قال إنها كانت ثلاث ليال ، دون أن يهتم بذكر الأيام والليالي التي استغرقها فتح خيبر ، بل ولا المدة التي استغرقها المسلمون في المسير إليها والعودة منها إلى المدينة .

ليس ذلك وحسب ، بل إن المؤرخين وكتاب السيرة اختلفوا فيما بينهم حول ما إذا كانت صفية وقت سببها متزوجة أم مخطوبة ، وهو ما جعل المؤرخين الغربيين يختلفون فيما بينهم أيضا . فبينما يقول (هـ . ج . ويلز) إنها كانت متزوجة وإن الرسول تزوجها في الليلة التي قتل فيها زوجها فإن مؤرخا آخر هو (ول ديورانت) يرى أنها كانت مخطوبة وليست متزوجة فهو يقول : « إن يهود خيبر لما

استسلموا بعد قتل ثلاثة وتسعين رجلاً منهم ؛ لم يمض الرسول أحداً من الباقين بسوء ما عدا زعيمهم كنانة وابن عم له فقطع رأسهما ؛ لأنهما أخفيا بعض ما يملكان ، وضُمَّتْ صفيةُ وهى فتاة يهودية فى

السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكنانة - إلى نساء النبى ، وإن ذلك كان سنة ٦٢٨ ميلادية ، فلو أن صفية كانت مخطوبة فقط كما يقول (ديورانت) فإن مسألة الاستبراء لا تثور ، ويكون زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بصفية فى نفس الليلة التى فتح فيها خير صحيحاً لعد اشتراط استبراء البكر . ولكن الراجح أن صفية كانت متروجة وقت فتح خير ووقعها فى السبى ، وكان زوجها كنانة بن أبى الحقيق الذى يقال إنها كانت قد زفت إليه قبل فتح خير بمدة وجيزة ، ولذلك وصفها البعض بالعروس ، وإن كان هناك من يقول إن هذا الزواج لم يكن الأول بالنسبة لها ، وإنما سبق أن تزوجت بسلام بن مشكم الذى كان شاعرا هو الآخر مثل كنانة ^(٥).

إلا أن ما ذكره ابن كثير ^(٦) يفهم منه أن صفية لم تتزوج قبل كنانة ابن أبى الحقيق ، فهو يقول : كان من شأن صفية بنت حى النضيرية أنه لما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يهود بنى النضير من المدينة كما تقدم ، فذهب عامتهم إلى خير وفيهم حى بن أخطب وبنو أبى

٤ — قصة الحصاره ، المجلد الرابع ، صفحه ٣٩ .

٥ — أسد الغابة ، المجلد ٦ ، صفحه ٦٩ .

٦ — البداية والنهاية ، الجزء الرابع ، صفحه ١٩٦ .

الحقيق ، وكانوا ذوى مال وشرف في قومهم ، وكانت صفية إذ ذاك طفلة دون البلوغ ، ثم لما تأهلت للتزويج تزوجها بعض بنى عمها . فلما زفت إليه وأدخلت إليه بنتى بها ومضى على ذلك ليالٍ رأت في منامها كأن قمر السماء قد سقط في حجرها فقصت رؤياها على ابن عمها ، فلطم وجهها ، وقال أأتمنين ملك يثرب أن يصير بَعْلَكَ ؟ فما كان إلا مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصاره إياهم . فكانت صفية في جملة السبي ، وكان زوجها في جملة القتلى ، ولما اصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت في حوزة وملكه كما سيأتى ، وبني بعد استيرائها وحلها - وجد أثر تلك اللطمة في خدها فسألها ما شأنها ؟ فذكرت ما كانت رأت من تلك الرؤيا الصالحة ولكن يلاحظ أن ما قاله ابن كثير من أن صفية كانت طفلة دون البلوغ عند ما أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومها يهود بنى النضير من المدينة يتعارض مع ما قاله (ديورانت) من أنها كانت في السابعة عشره من عمرها عند وقوعها في السبي ، ومعنى هذا أنها لم تكن طفلة يوم تركها المدينة مع قومها ، وذلك لأن هذا الإجماع كان في السنة الرابعة للهجرة ، في حين وقع غزو خيبر في السنة السابعة للهجرة على أرجح الأقوال ، أى أن بين التاريخين ثلاثة أعوام فقط ، وهى مدة قليلة لا يتصور معها أن تصل طفلة إلى سن البلوغ فتزوج من سلام بن مشكم ، ثم من بعده بكنانة بن أبى الحقيق . وإذا كان هذا قد حدث ، فإن حدوثه يكون في خيبر وليس في المدينة ؛ حيث كانت صفية لاتزال طفلة طبقا لما قاله ابن كثير .

وبغض النظر عما قاله أسد الغابة من أن صفية كانت قد تزوجت لأول مرة قبل زواجها من كنانة ، فإن الثابت المحقق أنها عند سببها كانت زوجة لهذا الأخير ، ومن ثم كان يجب أن تستبرأ من الحمل قبل زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بها ، وذلك طبقاً لما فرضه القرآن الكريم والسنة النبوية . فلا يتصور إذن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد عقد عليها ودخل بها في نفس اليوم الذي فتح فيه خير كما زعم «ويلز» استناداً إلى الروايات التي وردت في كتب الحديث والتاريخ والسيرة ، كما ذكرنا . على الرغم من أن هذه الروايات الشديدة الاقتضاب إلى درجة محلة أكدت أن الرسول صلى الله عليه وسلم تزوج صفية بعد استبرائها .

الدليل على وجوب الاستبراء :

القرآن الكريم واضح وصريح فيما قضى به ونص عليه من وجوب الاستبراء بالنسبة للسبايا . وذلك في قوله تعالى : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٧) . ويقول ابن كثير^(٨) في تفسيرها أى : وحرم عليكم من الأجنبية (المحصنات) وهن المزوجات (إلا ما مملكت أيمانكم) يعنى إلا ما ملكتموهن بالسبي ، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن . فإن الآية نزلت في ذلك . وقال الأمام أحمد : حدثنا عبد الرازق ، أخبرنا سفيان — هو الثوري — عن

٧ - النساء : أول الآية ٢٤ .

٨ - المرجع السابق ، صفحة ٢٢٣ .

عثمان البتي ، عن أبي الخليل ، عن أبي سعيد الخدري قال : أصبنا نساء من سبي (أوطاس) ولهن أزواج ، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية (والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيماكم) فاستحللنا بها فزوجهن .

ولكن هناك من يذهب إلى أن الآية نزلت في سبايا خيبر ، وليس في سبايا أوطاس ، وهو مارواه الطبراني من طريق الضحاك عن ابن عباس . ويرجح ما قاله الطبري ^(٩) مما سنورده له فيما يلي ما ذهب إليه هذا الفريق ، وإن لم يكن الطبري قد صرح به ، فقد عارض حديث أبي سعيد الخدري الذي قال فيه إن الآية في سبايا أوطاس قائلاً : إن سبايا أوطاس لم يوطأن بالملك والسباء دون الإسلام ، وذلك أنهم كن مشركات من عبدة الأوثان ، وقد قامت الحجة بأن نساء عبدة الأوثان لا يحللن بالملك دون الإسلام ، وإنهن إذا أسلمن فرق الإسلام بينهن وبين الأزواج سبايا كن أو مهاجرات ، غير أنهم إذا كن سبايا حللن إذا هن أسلمن بالاستبراء . فلا حجة لمحتج في أن المحصنات اللاتي عناهن بقوله والمحصنات من النساء ذوات الأزواج من السبايا دون غيرهن بخبر أبي سعيد الخدري إن ذلك نزل في سبايا أوطاس ؛ لأنه وإن كان فيهن نزل فلم ينزل في إباحة وطئهن بالسباء خاصة دون غيره من المعاني التي ذكرنا ، مع أن الآية تنزل في معنى فتعم ما نزلت به فيه وغيره فيلزم حكمها جميع ما عمته لما قد بينا من

القول في العموم والخصوص في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام». ولذلك فإن الطبرى يضيف إلى الاستبراء كشرط لتحليل وطء السبايا شرطاً آخر ، هو أن يَكُنَّ من أهل الكتاب أى يهوديات أو نصرانيات . فهو يقول ^(١٠) : فالذى أباحه الله تبارك وتعالى نكاحاً من الحرائر الأربع سوى اللواتى حرمن علينا بالنسب والصهر ومن الإماء ماسبيناً من العدو سوى اللواتى وافق معنهن معنى ما حرم علينا من الحرائر بالنسب والصهر فإنهن والحرائر فيما يحل ويحرم بذلك المعنى متفقات المعانى وسوى اللواتى سبيناهن من أهل الكتابين ولهن أزواج فإن السباء يحلن لمن سباهن بعد الاستبراء وبعد إخراج حق الله تبارك وتعالى الذى جعله لأهل الخمس منهن .

ولم يشترط القرطبى ذلك ^(١١) فهو يقول «وقال ابن عباس وأبو قلابة وابن زيد ومكحول والزهرى وأبو سعيد الخدرى : المراد بالحصنات هنا المسييات ذوات الأزواج خاصة» ، أى هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبى من أرض الحرب ، فإن تلك حلال للذى تقع فى سهمه وإن كان لها زوج . وهو قول الشافعى فى أن السباء يقطع العصمة ، وقاله ابن وهب وابن عبدالحكم وروياه عن مالك ، وقال به أشهب . يدل عليه ما رواه مسلم فى صحيحه عن أنى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين بعث جيشاً إلى أوطاس ، فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ،

١٠ — المرجع السابق ، صفحة ٦ .

١١ — المجلد الخامس ، صفحة ١٢١ .

فكان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن . وهذا نص صحيح صريح في أن الآية نزلت بسبب تخرج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن وطء المسييات ذوات الأزواج ، فأنزل الله تعالى في جوابهم ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ .

كذلك يقول الشيخ محمد رشيد رضا ^(١٢) «إلا ما ملكت إيمانكم» فالجمهور على أنه استثناء من المحصنات أي إلا ما سيئتم منهن في حرب دينية تدافعون فيها عن حقيقتكم ، أو تؤمنون بها دعوة دينكم ، ورأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن الكفار في دار الحرب ، فعند ذلك ينحل عقد زوجيتهن ويكُنَّ حلالا لكم بالشروط المعروفة في الشريعة ، فقد روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أنه كان سبب نزول هذه الآية تَحْرُجُ الصحابة من الاستمتاع بسبايا (أوطاس) وأخرج الحديث أيضا أحمد وأصحاب السنن ، وفي هذه الروايات التصريح باشتراط الاستبراء بوضع الحامل لحملها ، وحيض غيرها ثم طهرها ، وقد صرح بعض العلماء كالحنفية وبعض الحنابلة بأن من سبي معها زوجها لا تحل لغيره ، فاعتبروا في الحل اختلاف الدار : دار الإسلام ودار الحرب . وبعضهم يقول : إن اختلاف الدار لا دَخَلَ له في حِلِّ السبايا ، وإنما سببه أن من سيئت دون

١٢ — تفسير المنار ، الجزء الخامس ، صفحة ٤ .

زوجها فإنها إنما تحل للسانى بعد استبراء رحمها للشك فى حياة زوجها، أى عدم الطمع فى حقوقه بها إن فرض أنه بقى حيا إلا على سبيل النور الذى لا حكم له .

وهكذا لانجد خلافا بين المفسرين حول معنى الآية ، وهو اشتراط استبراء السبى قبل وطئها سواء كان الوطء فى نكاح أى زواج أو فى غير زواج ، بل إنه فى الزواج أولى . فلا يعقل أن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الحكم الصريح ، ويتزوج صفية ، ويدخل بها فى آخر اليوم الذى فتح فيه خيبر . خاصة إذا كان هو نفسه قد تحدث فى هذا الشأن ، فنهى عن وطء السبايا إلا بعد استبرائهن .. فقد ذكر ابن كثير^(١٣) فى تاريخه قال ، قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن أبى حبيب عن أبى مرزوق مولى تميم عن حسن الصنعانى قال : عزونا مع ربيعة بن ثابت الأنصارى المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربه ، فقام فيها خطيبا فقال : أيها الناس إني لأقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فينا يوم خيبر ، قام فينا رسول الله فقال : لا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماء زرع غيره يعنى إتيان الحبالى من السبى ، لا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنا حتى يقسم ، ولا يحل لامرأة يؤمن بالله واليوم الآخر أن

١٣ - المرجع السابق ، صفحة ١٩٢ .

يركب دابة في فَيْءٍ من المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه . وهكذا روى هذا الحديث أبو داود من طرق محمد بن إسحاق . ورواه الترمذى عن حفص بن عمرو الشيبانى عن ابن وهب عن يحيى بن أيوب عن ربيعة بن سليم عن بشر بن عبيد الله عن رويغ بن ثابت مختصرا وقال حسن . هذا بالإضافة إلى حديثه صلى الله عليه وسلم في سبائا أوطاس : «ألا لا توطأ الحبالى حتى يضعن حملهن ، ولا الحبالى حتى يستبرأن بحيمضة» وهو ما يفيد وجوب الاستبراء على المولى ^(١٤) . وهكذا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد كرر النهى في خير ، فهل يعقل أن يقف في المحاريق يقول ذلك ثم يكون هو أول من يخالف ما نهى عنه القرآن وما نهى هو نفسه عنه ؟ لا نظن أن ذلك مما يمكن أن يتصوره عاقل .

وعلى الرغم من أن الأحاديث التى رويت بشأن فتح خير بعامة أو بشأن سبى صفية وزواج الرسول بها بخاصة — لم تشمل على تفاصيل كافية يبين منها ما إذا كان الرسول قد استبرأها أم لا ، بل إن الإيجاز الشديد لهذه الأحاديث ولغيرها من الروايات التى وردت في كتب السيرة والتاريخ أدت إلى العكس ، أى إلى خلق الاعتقاد لدى الكثيرين ، وبخاصة المؤرخون والمستشرقون ، بأن الزواج ثم في مساء اليوم الذى فتحت فيه خير ، وبالتالي لم يكن هناك استبراء . إلا أن كثيرا من هذه الأحاديث وتلك الروايات ذكرت الاستبراء صراحة . ففي الحديث الذى رواه أنس ، قال : قدمنا خير فلما فتح الرسول

الحصن ذكر له جمال صفية بنت حبي بن أخطب وقد قتل زوجها وكانت عروسا ، فاصطفاه النبي لنفسه ، فخرج بها حتى بلغ سد الصهباء حلت . فبنى بها رسول الله « أى أنها لم تكن قد قضت عدتها بعد عندما خرجت من خير وأنها أتمت استبرائها عندما بلغوا سد الصهباء فاصبح وطؤها حلالا . وفي حديث آخر رواه أنس أيضا ، قال : وقع في سهم دحية جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله بسبعة أرؤس ، ثم دفعها إلى أم سلمة تصنعها وتهيتها . قال حماد : وأحسبه (أى ثابت) قال : وتعتد في بيتها صفية بنت حبي . تفرد به أبو داود . ونفهم من هذا الحديث أن صفية قد اعتدت في بيت أم سلمة ، تمهيدا لزواج الرسول صلى الله عليه وسلم بها . وبطبيعة الحال فإن هذا البيت كان في خير ؛ لأن الزواج حدث بعد خروج المسلمين منها في طريق عودتهم إلى المدينة . ويقول ابن هشام^(١٥) : إن التى هيأت صفية للعرس ليست أم سلمة ، بل أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك . قال ابن إسحاق : ولما أعرس رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفية ، بخير أو ببعض الطريق ، وكانت التى جمعتها لرسول الله ومَشَّطَتْهَا أو أصلحت من أمرها أم سليم بنت ملحان ، أم أنس بن مالك . فبات رسول الله في قبة له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النجار متوشحا سيفه ، يخرس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويظيف بالقبة ، حتى أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى مكانه قال : مالك يا أبا أيوب ؟ قال : يا رسول

الله ، خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قَتَلَتْ أباهما وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فحفتها عليك .
الثابت إذن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استبرأ صفية بنت حيى قبل أن يتزوجها . وذلك التزاما منه بما قضى به الكتاب الكريم . وسنته صلى الله عليه وسلم . ولكن بالنظر إلى أن المؤرخين الغربيين والمستشرقين قد لا يعتبرون ذلك دليلا كافيا على حدوث الاستبراء ، ولأن عدم وضوح الأحاديث والروايات المختلفة لا يؤيد بدرجة كافية حدوث الاستبراء ، خاصة مع ما تصوره الأحداث من أن فتح خير قد تم بسرعة (يوم ، أو أيام قليلة) مما لا يعد كافيا لحدوث الاستبراء — فإننا نجد أنه من الضروري بَحْثُ المدة التى استغرقها فتح خير ، والفترة التى انقضت بين سبى صفية وزواج الرسول بها لنرى ما إذا كانت كافية لحدوث الاستبراء أم لا .

يقول ابن رشد القرطبى ^(١٦): الجمهور على أن عدة الزوجات غير الحرائر حيضتان على أساس أن الحيض شأنه شأن الطلاق ، والحد ينتصف (أى يكون على النصف) مع الرق ، وإنما جعلوها حيضتين ؛ لأن الحيضة الواحدة لا تتبعض . أى أنه لا يمكن القول إن غير الحرة يشترط أن تحيض حيضة ونصفاً حيث إن الشرط بالنسبة للحرة أن تحيض ثلاث حيضات .

أما القرطبى ^(١٧) فإنه يقول «واختلفوا فى استبرائها بماذا يكون ،

١٦ — الجزء الأول ، صفحة ٩٣ .

١٧ — الجزء الخامس ، صفحة ١٢١ .

فقال الحسن : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبرئون المسبية بحیضة ، وقد روى ذلك حدیث أبی سعید الخدری فی سبایا أوطاس « لا نوطاً حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض » ولم يجعل لفراس الزوج السابق أثراً حتى يقال إن المسبية مملوكة ولكنها كانت زوجة زال نكاحها ، فتعتد عدة الإماء ، على ما نقل عن الحسن بن صالح قال : عليها العدة حیضتان إذا كان لها زوج فی دار الحرب . وكافة العلماء رأوا استبراءها واستبراء التي لا زوج لها واحدا فی أن الجميع بحیضه واحدة ، والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بین أن یسبى الزوجان مجتمعین أو متفرقین . وروی عنه ابن بكیر أنهما إن سُبیا جميعا واستبقى الرجل أُقِرّا على نكاحهما ، فرأى فی هذه الروایة أن استبقاءه إبقاء لما یملكه ، لأنه قد صار له عهد وزوجته من جملة ما یملكه ، فلا یخال بینہ وبينها ، وهو قول أبی حنیفة والثوری ، وبه قال ابن القاسم ورواه عن مالك ؛ والصحيح الأول لما ذكرناه ، ولأن الله تعالى قال ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ فأحال على ملك اليمين وجعله هو المؤثر فيتعلق بالحكم به من حیث العموم والتعلیل جميعا ، إلا ما خصه الدلیل .

أما ابن حزم فإنه يعارض هذا الرأي ، ويذهب إلى أن استبراء السبى يكون بِعَدَدٍ من الحيضات مماثل لما تتم به عدة الحرة ^(١٨) فهو يقول : واحتج من رأى الاستبراء على هذا الوجه بما روى من أن أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابوا سبايا بأوطاس ، فكان الناس تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل : ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أى فهن حلال لكم إذا انقضت عدتهن . ومن طريق أبى داود حدثنا عمرو بن عون ، أخبرنا شريك عن قيس بن وهب عن أبى الوداك عن أبى سعيد الخدرى رفعه أنه قال فى سبايا أوطاس : لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير حامل حتى تحيض ، ومن طريق عبد الرزاق عن معمر بن طاووس : أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مناديا فى بعض مغازيه : لا يَقَعَنَّ رجل على حامل ولا على حائل حتى تحيض ، ومن طريق عبد الرزاق عن سفيان الثورى عن زكريا عن الشعبي : أصاب المسلمون سبايا يوم أوطاس فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يقعوا على حامل حتى تضع ، ولا غير حامل حتى تحيض حيضه ، لا نعلم ورد فى هذا غير ما ذكرناه .

قال ابن حزم : حديث طاووس والشعبى مرسلان ، ولا حجة فى مرسل ، وخبر الوداك ساقط ؛ لأن أبى الوداك وشريكا ضعيفان ، ثم لو صحت لكانت حجة على من احتج بها ؛ لأن فيها المنع من وطء التى ليست حاملا حتى تحيض ، وهم لا يقولون بهذا ، بل يحدون حدودا ليست فى هذه الآثار ، ومن الكبائر مخالفة أثر يحتاج به المرء ويصححه . وأما خبر أبى علقمة فهو الذى لا يصح فى هذا الباب غيره ، فليس فيه ذكر للاستبراء أصلا ، لا بنص ولا بدليل فيه إباحة وطء المحصنات إذا ملكناهن فقط ، فهو عليهم لاهم ، وأما الذى فى

آخره فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن ، فلا شك أنه ليس من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لو صح أنه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهو لا يصح أبداً — لَمَا كانت لهم فيه حجة ؛ لأنه إنما فيه إذا انقضت عدتهن ، والعدة المعروفة في الدين ليست إلا أربعة أشهر وعشرا في الوفاة ، وثلاثة قروء للتي تحيض من المطلقات ، وثلاثة أشهر للتي لم تحض أو لا تحيض من المطلقات ، ووضع الحمل المطلقة أو متوفى عنها ، ولا مزيد ، وهم ها هنا جعلوا الاستبراء بحیضة ، وليس هذا عدة ، فبطل أن يكون لهم متعلق فيه أصلا .

غير أن ما عليه الجمهور هو أن السبى تستبرأ بحیضة واحدة ، ويقول ابن تيمية ^(١٩) : إن العلماء عامة إنما يوجبون في ذلك استبراء بحیضة ، وهو اعتداد من وطء زوج يلحقه النسب ، ووطؤه محترم وإن كان كافرا حريبا ، فإن محاربتة أباحته قتله ، وأخذ ماله ، واسترقاق امرأته ، على نزاع وتفصيل بين العلماء ، لكن لا خلاف أن نسب ولده ثابت منه ، وأن مائه محترم لا يحل لأحد أن يطأ زوجته قبل الاستبراء باتفاق المسلمين ، بل لقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك ، كما في الحديث الصحيح في مسلم : « انه أتى على امرأة محج على باب فسطاط ، فقال : « لعل سيدها يلم بها » قالوا : نعم . قال : « لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره ، كيف يورثه وهو لا يحل له ؟ كيف يستعبده وهو لا يحل له » . ونهى أن يسقى الرجل

ماءه زرع غيره . وهذا هو المتيقن حدوثه من الرسول صلى الله عليه وسلم مع صفية ؛ لأنه إذا كان قد تزوجها بعد أن استبرأها ، وهو ما أكدته الروايات المختلفة — فإن استبرأها كان بحيضة واحدة ، وهذا حكم خاص بالسبي .

إذن فقد كان يجب أن تستبرئ صفية بحيضة واحدة ، ومع ذلك يظل هناك سؤال حول ما إذا كانت المدة التي انقضت ما بين سبها وزواج الرسول صلى الله عليه وسلم كافية لحدوث الاستبراء أم لا وهذا ما سوف نبينه فيما يلي :

فتح خير :

اختلفت الأقوال بشأن السنة التي فتحت فيها خير : فهناك قول يذهب إلى أن ذلك كان في السنة السادسة للهجرة . في حين يذهب قول آخر إلى أن فتحها كان في السنة الثامنة للهجرة . ولكن أرجح الأقوال على أنها فتحت في السنة السابعة للهجرة ، في المحرم أو في صفر على خلاف في ذلك . وقد ذكر الطبري في تاريخه أنها فتحت في شهر صفر من السنة السابعة للهجرة ، وجاء في معجم البلدان أن النبي صلى الله عليه وسلم فتح خير كلها سنة سبع للهجرة ، وقيل سنة ثمان ، وقال محمد بن موسى الخوارزمي : غزاها النبي صلى الله عليه وسلم حين مضى ست سنين وثلاثة أشهر وواحد وعشرون يوما للهجرة ، وحكى موسى عن الزهري أن افتتاح خير في سنة ست^(٢٠) . وقال أحمد بن جابر : فتحت خير في سنة سبع عنوة ،

٢٠ — ابن كثير : البداية والنهاية ، الجزء الرابع ، صفحه ١٨١ .

نازلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من شهر ، ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية ، على أن يخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة إلا ما كان منها على الأجساد ، وألا يكتموه شيئا . وقال ابن الأثير : إن غزوة خيبر كان في المحرم سنة سبع للهجرة : ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض المحرم ، وسار إلى خيبر في ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس ، وكان مسيره إلى خيبر في المحرم سنة سبع .

ويبدو أن الخلاف بين من ذكروا أن غزوة خيبر كانت في المحرم ، ومن ذكروا أنها كانت في صفر من عام سبعة للهجرة — يرجع إلى أن الذين قالوا بالقول الأول نظروا إلى تاريخ خروج جيش المسلمين من المدينة متجها إلى خيبر . في حين أن الذين قالوا بالقول الثاني نظروا إلى وصول هذا الجيش إلى خيبر ؛ حيث قدروا أنه قد استغرق في الوصول إليها المدة المتبقية من المحرم إلى بداية صفر ، حيث إننا لا نجد أن أحدا لامن هؤلاء ولا من أولئك ذكر متى وصل جيش المسلمين إلى خيبر بعد خروجه من المدينة على الرغم من أن المسافة بينهما معروفة ، ويمكن تحديد المدة اللازمة لقطعها على وجه التقريب ، حيث إن الأمر يختلف بحسب السرعة التي يسير بها الجيش . وهو ما يمكننا أن نقوم به .

المدة التي استغرقها جيش المسلمين للوصول إلى خيبر :

يقول ياقوت في معجم البلدان : إن خيبر هي ناحية على ثمانية بَرْدٍ

(جمع بريد) من المدينة لمن يريد الشام . والبريد ثلاثة فراسخ عند العرب ، وفرسخان عند الفرس ، وأربعة عند المغاربة ، والفرسخ ثلاثة أميال . ومعنى ذلك أن المسافة بين المدينة وخيبر كانت أربعة وعشرين ميلا ، إلا أنه يبدو أن تقدير ياقوت للمسافة بين المدينة وخيبر لم يكن دقيقا ؛ فقد جاء في القاموس الإسلامى (أحمد عطية الله) تحت مادة خيبر أن خيبر تبعد عن المدينة بنحو ستين ميلا ، كانت تقطعها القوافل في ثلاثة أيام . كذلك جاء في الموسوعة العربية الميسرة أن خيبر واحدة بالحجاز على بعد ٩٥ كم شرق المدينة ، تقع في حرة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٨٥٠ مترا بها عدة قرى أهمها خيبر التى تقع في وادى الزبدية أكبر وديان المنطقة .

إلا أنه بالنظر إلى ما ذكر من أن جيش المسلمين قد توقف في سيره إلى خيبر لاستطلاع موقف غطفان من يهود خيبر ، حيث إن هذه القبيلة ، كانت ترتبط معهم بخلف وأنها خرجت لتمد لهم يد العون لما علمت بقدوم جيش المسلمين ، ثم لما خافت أن يباغت جيش المسلمين مواطنها فيغير عليها عادت إليها تاركة اليهود وشأنهم ، فإنه من المرجح أن يكون وصول المسلمين مشارف خيبر من وقت خروجهم من المدينة قد استغرق ما بين ثلاثة أيام إلى سبعة أيام . وهى المدة التى كانت قد تبقت من شهر المحرم ، أى أنهم بدعوا حصارهم لخيبر في أول صفر . فإذا كان ذلك صحيحا فما المدة التى استغرقها فتحهم لخيبر ؟ يهمنى قبل أن بحث فى هذا الموضوع أن نقدم تعريفا لخيبر وطبيعتها ومم تكون ؛ حيث إنه لكثرة الحديث عن فتح خيبر بشكل إجمالى وشديد الإيجاز غلب على ظن الناس أن خيبر هذه كانت

قرية أو مدينة صغيرة عادية يمكن لجيش المسلمين أن يضرب عليها حصارا حتى يجهد أهلها ثم يغزوها ، أو أن يباغتها فيحترقها بجنوده الذين ينطلقون في السكك يقتلون المقاتلة ويسبون الذرية على حد قول أنس بن مالك الذي بسَّط الأمور إلى الحد الذي يجعل من يقرأ كلامه يتصور أن المعركة كانت مطاردة من المسلمين لليهود داخل طرق خبير ؛ وليس هكذا كان الأمر .

معنى خبير ومم تكون ؟

يقول ياقوت : لفظ خبير بلسان اليهود الحصن ؛ ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر . إذن فخبير لم تكن مدينة بالمعنى المعروف ، أو قرية بالشكل المألوف بل كانت ثكنة عسكرية ضخمة تنتشر فيها الحصون القوية التي اعتاد اليهود أن يقيموا فيها بعد أن يجعلوها منيعة بجدرانها السميكة العالية وأبوابها الصغيرة المتينة المصنوعة من كتل الخشب التي لا تحترقها السهام ، لا تؤثر فيها النار بسهولة ، يوصلونها من الداخل ويثبتونها بالحديد والمتاريس ، أما جدرانها العالية فصماء حجرية ليس فيها من الفتحات إلا ما يسمح لرماتهم بإطلاق السهام والنبل دون أن تنال منهم سهام المهاجمين ونبلهم . أما في داخل هذه الحصون فتوجد مساكنهم ومستودعات طعامهم وآبارهم وكافة ما يلبي احتياجاتهم ، بحيث يستطيعون البقاء بداخلها مددا طويلة إذا ضرب عليهم الحصار . وكانوا يخرجون في الصباح للإشراف على مزارعهم ونخلهم الذي كان كثيرا ، وكانوا إذا فرغوا من عملهم عادوا إلى حصونهم وأغلقوا

أبوابها عليهم إلى الصباح التالى . وكانت المنطقة التى يطلق عليها اسم (خير) نشتمل على سبعة حصون ، وأسماء حصونها طبقا لما ذكره ياقوت وغيره هى : حصن ناعم ، وحصن القموص وهو حصن ألى الحقيق الذى كان ابنه زوجا لصفية ، وحصن الشق ، وحصن النطاة ، وحصن السلام ، وحصن الوطيح ، وحصن الكتيبة . فليس من المعقول إذن أن يستولى المسلمون على هذه الحصون كلها فى يوم واحد كما يوحى بذلك حديث أنس . أما ما ذكره من سعى المسلمين فى السكك يقتلون المقاتلة ، فلعله قصد به من كان قد تخلف من اليهود خارج هذا الحصن أو ذاك ، بعد أن لم تسعفهم خطاهم لبلوغ حصونهم فرار من المسلمين ، بعد أن فوجئوا بهم يهاجمونهم فى وقت مبكر من الصباح ، فلما رآهم المسلمون طاردوهم وانتهى اشتباكهم معهم فى قتال إلى قتلهم . ولا يحسن أحد أن هؤلاء اليهود كانوا عزلا من السلاح فقد كانوا يتأهبون لحرب المسلمين بعد أن فعلوا ما فعلوا ببنى عمومته من يهود بنى قريظة والنضير الذين كانت بعض فلولهم قد وصلت إلى خير منذ بعض الوقت ، وأخذت نعد العدة للانتقام من المسلمين ، أما هؤلاء الذين لا ذوا بالحصون أو كانوا لا يزالون فيها لم يغادروها ، فإنهم شرعوا يدافعون عن حصونهم بما لديهم من أنواع السلاح ، فرموا المسلمين بالسهم والنبل وكرات النار والحجارة ؛ ليحولوا بينهم وبين الاقتراب من أسوار حصونهم واقتحام أبوابها .

ولم تكن قوة يهود خير بالتى يستهان . خاصة بعد أن انضم إليهم إخوانهم يهود بنى النضير الذين كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد

أجلاهم عن المدينة في السنة الرابعة للهجرة ، وذلك بعد أن حاصروهم خمسة عشر يوما حتى صالحوه على أن يخقن لهم دماءهم ، وله الأموال والحلقة ، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم ويسيرهم إلى (أذرعات) الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرا وسقاء «ففعّلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، فكان من أشرفهم ممن سار منهم إلى خيبر سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحُيَّ بن أخطب والد صفية ، فلما نزلوها دان لهم أهلها .

ولكن هل اكتفى يهود بني النضير — وعلى رأسهم هؤلاء الثلاثة الكبار — بمخالفة ما عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم من السير إلى أذرعات بالشام ، ونوقفهم في خيبر حيث فرضوا عليها سيطرتهم ودانت لهم ؟ كلا ، بل إنهم أخلوا يتصلون ببني عمومته من يهود بني قريظة الذين كانوا ما يزالون في المدينة يتآمرون معهم على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويشجعونهم على التحالف مع قريش وغيرها من القبائل من القضاء على بني قريظة .

وكان ما كان من أمر بني قريظة الذين قتلوا المسلمون محاريبهم . وكان فيمن قتلوا حبي بن أخطب والد صفية . ويقول الطبري عن غزوه بني قريظة : «ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني قريظة ونساءهم على المسلمين ... واصطفى لنفسه من نسائهم ريخانة بنت عمرو بن جنانة إحدى نساء بني عمرو بن قريظة ،

فكانت عند الرسول صلى الله عليه وسلم حتى نوفي عنها وهى فى ملكه . وكان فتح بنى قريظة فى ذى القعدة أو فى ذى الحجة من سنة ست هجرية .

وهكذا يكون حى بن أخطب قد قتل فى المدينة فى حين كانت ابنته فى خير مع كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق الذى كان قد تزوجها . وموت حى بن أخطب نقاسم زعامه اليهود مع سلام بن أبى الحقيق ابن عمه . وبطبيعة الحال فإنهما عقدا العزم على ألا يستسلم اليهود للمسلمين ، وأن يقاوموهم حتى لا يحدث لهم ما حدث لبنى قريظة . ولا شك أن يهود بنى النضير عشيرة صفية بنت حى أقروهم على ذلك ؛ لكى يثأروا من المسلمين ؛ وليقضوا عليهم أو يهزموهم فلا تقوم لهم قائمة ، ويعودوا هم إلى المدينة التى سبق أن أجلاهم المسلمون عنها . فهل يتصور بعد كل ذلك أن تبدأ المعركة فى أول النهار وتنتهى فى آخره ، لكى يتزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من إحدى السبايا وهى صفية فى مساء هذا اليوم ؟ .

وكيف يقبل ذلك وقد رآها مع قريبتها التى كانت تبكى على قتلها ، وهو رسول الرحمة الذى أُنْبى بلالا ؛ لأنه مر بهما على القتل . كذلك هل يتصور أحد أن يستولى المسلمون على سبعة أو عشرة حصون فى يوم واحد بواقع حصن كل يوم ، فى حين أنهم لم يستولوا على حصون بنى قريظة إلا بعد حصار دام خمسة وعشرين يوما مع الفارق الكبير بينها وبين حصون خير ؟ إن الكلام عن فتح خير كما ورد فى بعض الأحاديث يجعل الأمر يظهر كما لو كان نزهة أو رحلة

قام بها المسلمون فقتلوا وسبوا واستمتعوا بالسبي ، ثم عادوا محملين بما حصلوا عليه من أموال اليهود ومتاعهم . وهذه بلا شك صورة سيئة ، وأسوأ منها أن يقال إن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح خير نهرا ، وتزوج صفية مساء بعد أن أخذها من أحد رجاله ، أو بعد أن أبلغه بعضهم بحسبها ونسبها ، أو بعد أن استعرض السبايا فرآها فأعجبه جمالها . وكلها أمور يمكن تصور حدوثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان مثاليا فى سلوكه وخلقه ومواقفه جميعا ، والتزامه الشديد بأحكام الإسلام ومبادئه وقيمه ، بحيث إنه لم يُعرف عنه انه خالفها أبدا ، فما باله يفعل ذلك فيتزوج صفية دون أن يستبرئها من الحمل ويدخل بها ودماء أهلها وعشيرتها لم تحف ؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

المدة التى استغرقها فتح خير

طبقا لما قاله المؤرخون فإن بداية غزو خير كانت فى الأيام الأخيرة من شهر المحرم ، حيث تحرك جيش المسلمين من المدينة متجها إلى خير . أما المعارك التى دارت بين هذا الجيش وجيش اليهود فقد بدأت مع بداية شهر صفر من السنة السابعة للهجرة . ولكن ماهى المدة التى استغرقها فتح خير والاستيلاء على حصونها ؟ هذا ما لم يهتم معظم المؤرخين بذكره ، وقليلون منهم ذكروا أنها كانت خمسة عشر يوما أو خمسة وعشرين يوما . وكلا التقديرين غير صحيح بالمرّة ؛ لأنه لا يتفق مع الظروف والأحوال التى سبق أن ذكرناها من حيث عدد الحصون وقوتها ودوافع المقاتلين اليهود . أما ابن الأثير فهو وإن

لم يكن ذكر المدة التي استغرقها فتح خيبر على سبيل التحديد وبوضوح كاف ، إلا أنه ذكر الوقت الذي عاد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مع جيش المسلمين إلى المدينة . فهو يقول : « لما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر أقام بالمدينة جماديين ورجباً وشعبانَ ورمضانَ وشوالاً يبعث بالسرايا ، ثم خرج في ذى الحجة معتمراً عمره القضاء ^(٢١) . وهذا معناه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى في خيبر صيفاً وربيعاً الأول وربيعاً الثاني ، وعاد إلى المدينة في شهر جمادى الأولى أى أن فتح خيبر استغرق ثلاثة شهور كاملة ، وليس خمسة عشر يوماً أو خمسة وعشرين يوماً ، أو ستة أسابيع ، وهو ما قاله صاحب القاموس الإسلامى .

وفيما يتعلق بوفوق صفية بنت حُيَيٍّ في السبى فإنه كان في الأيام الأولى للغزو . يقول ابن هشام: ^(٢٢) كان أول حصون خيبر التي افتتحها الرسول حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة ، أُلقيت عليه منه رجا فقتلته . ثم حصن « انقموص » حصن بنى أوى الحقيق ، وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سبايا ، منهن صفية بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أوى الحقيق ، وبنت عم لها ، فاصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفية لنفسه . أما الاستاذ أحمد عطية الله فإنه يقول إن المسلمين بدعوا بالاستيلاء على

٢١ - اس الأنور ، المرجع السابق الجزء الثانى ، صفحه ٢٢٧ .

٢٢ - المرجع السابق ، صفحه ٣٣١ .

حصن القطاة الذى مات فى الدفاع عنه زعيم اليهود سلام بن مشكم فخلفه فى السيادة الحارث بن أبى زينب ، ثم استولوا على حصن ناعم ، فحصن القموص الذى سماه حصن «القميص» ثم حصون الصعب وأبى الحقيق ، ثم حصون أخرى بلغ عددها خمسة حصون . أى أنه جعل حصن «القموص» غير حصن أبى الحقيق ، فى حين يقول معظم المؤرخين المسلمين إن حصن «القموص» هو حصن أبى الحقيق ؛ لأنه كان صاحبه ، وقد يسمى «القموص» حصن أبى الحقيق نسبة إلى مالكة . كذلك فإنه بينا قال ياقوت إن عدد الحصون كان سبعة فإن أحمد عطية الله يذكر عشرة حصون ، والحصون الزائدة عنده هى : حصن أبى الحقيق ، وحصن الزبير ، وحصن الصعب ، وهى التى لم يذكرها ياقوت . وكيفما كان الأمر فى عدد الحصون أو ترتيب سقوطها فى أيدي المسلمين فالذى عليه الإجماع أن صفية كانت ممن سباهن المسلمون من النساء اليهوديات بعد استيلائهم على حصن القموص ، وهو حصن زوجها ، والخلاف حول ترتيب هذا الحصن فى قائمة الحصون التى استولى عليها المسلمون تباعا ينحصر فى كونه كان الثانى أو الثالث فى الترتيب ، وإن كان فى أرجح الأقوال يأتى الثانى فى الترتيب . وهذا معناه أن صفية بنت حبي وقعت فى السبي فى الأسبوع الثانى أو الثالث من بدء الغزو على أبعد تقدير ، وأنها ظلت سبيا لم يتحدد موقف الرسول منها من حيث صيرورتها ممن ملكت يمينه ، أو أنها ستصبح زوجة له حتى نهاية استيلاء المسلمين على آخر حصون خيبر وإتمامهم فتحها ، وهى مدة لا تقل عن شهرين كاملين يكفيان بدون شك لاستيرائها لا

بخيضة واحدة بل بخيضتين ، حيث إنه قيل إنها لم تحل إلا بعد الخروج من خيبر وبلوغ جيش المسلمين سد الصهباء حيث عقد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بها . وكانت قد أمضت المدة بين سببها وحيازة الرسول لها وبين زواجه منها في بيت أم أنس بن مالك كما أسلفنا ، في حين كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقود المسلمين في حربهم ضد اليهود واستيلائهم على حصونهم الواحد تلو الآخر .. فليس الأمر كما تصوره « ويلز » : حرب بالنهار وزواج بالليل !

أما ما قيل من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى صفية وضع عليها رداءه ، ففهم المسلمون أنه قد حازها لنفسه ، فإنه كلام فيه نظر وهو ما سنبينه فيما يلي :

مغزى وضع الرسول رداءه على صفية

الملاحظ أن الأقوال اختلفت حول هذا الأمر : فمن قائل إن ذلك قد حدث عندما شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم صفية بعد أن مرت مع ابنة عم لها على قتلاهما فصرخت ابنة عمها وَوَلَّوَتْ وَحَثَّت التراب على رأسها ، وإن الرسول حاز صفية خلفه ووضع عليها رداءه ، فعرف المسلمون أنه قد اصطفاها لنفسه . ومن قائل إن ذلك قد حدث بعد أن خرج المسلمون من خيبر وبلغوا سد الصهباء حيث أركب الرسول صفية خلفه ، ووضع رداءه عليها ، فعلموا أنه قد حجبها ، وبالتالي فهي زوجته وإحدى أمهات المؤمنين . وإذا كان وضع الرسول لردائه على صفية بعد زواجه بها له الدلالة التي

استخلصها الناس ، وهى أنه ضرب عليها الحجاب لأنه تزوجها ،
وبالتالى يسرى عليها مايسرى على أمهات المسلمين — فإن ما قيل من
تفسير لوضعه الرءاء عليها عند سبيها ليس هناك مايرجح الدلالة التى
استخلصوها منه ، وهى أنه قد اصطفأها لنفسه ؛ وذلك للأسباب
الآتية :

أولا — أنه لم توجد سوابق من هذا النوع قام فيها الرسول بالتعبير
عن اصطفائه لإحدى السبايا بوضع رءائه عليها ، وهى عادة قديمة
كانت لدى العرب فى الجاهلية ، حيث كان الابن الذى مات أبوه عن
زوجة غير أمه يلقي عليها برءائه ؛ دلالة على أنه سوف يتزوجها .
وهو ماحرمه الإسلام ، وعاقب عليه بالإعدام ، باعتبار زوجة الأب
من المحارم ؛ لكونها فى مرتبة الأم . والحالة الوحيدة التى اصطفى فيها
الرسول صلى الله عليه وسلم إحدى السبايا وكانت يهودية أيضا وهى
السيدة ربحانة بنت عمرو بن جنافة القرظية التى سبيت فى غزوة بنى
قريظة — لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيها ذلك .

ثانيا — أن ما حدث من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك من
تخييره صفية بين أن يعتقها ويتزوجها أو يردها إلى أهلها ينفى أن
يكون قد قصد منذ البداية أن يتخذها سبيا ؛ فقد روى أحمد « أن
النبي صلى الله عليه وسلم اصطفى صفية بنت حبيى ، فاتخذها لنفسه
وخيرها بين أن يعتقها وتكون زوجته أو يلحقها بأهلها ، فاختارت
أن يعتقها وتكون زوجته » . ويقول الشوكانى : إن هذا دليل على أن
من جرى عليه ملك المسلمين من السبي يجوز رده إلى الكفار إذا كان

على دينه . ومن هذا يمكن أن نستنتج مما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن يقصد به التعبير عن حيازته لصفية على سبيل ملك اليمين ؛ لأنه لم يغيرها بين أن تكون زوجة أو سبيا كما سبق أن فعل مع ربحانة التي فضلت أن تبقى سبيا ، بل خيرها بين أن يعتقها ويردها إلى أهلها وأن يعتقها ويتزوجها ، فاختارت الثانية .

ثالثا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان من الخلق والرحمة بالناس واحترام آدميتهم وتكريمهم ، بحيث لا يتصرف معهم كما لو كانوا سلعة أو بضاعة أو جمادا يلقي المرء رداءه عليه ، تعبيرا عن امتلاكه له ، ودون أن يلقي بالا إلى كونه إنسانا له أن يختار مصيره . وإذا كان قد ترك غيره من المسلمين يفعلون ذلك دون أن يعيروا اهتماما لرغبة السبايا فإنما كان ذلك عرفا شائعا وتقليدا سائدا واجهه بهدوء وروية بأن أخذ يضرب لهم المثل بما يفعله ، وقد ضرب لهم المثل في السبايا بأن سأل صفية عما تختاره من الزواج به أو العوده إلى أهلها ، فما كان ليقبل أن يستبقها رغم أنفها أو يعاشرها بدون رضاها . وما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع صفية يعد تطورا في معاملة السبايا يختلف عما كان عليه الوضع عند سبي ربحانة ، وهذه سمة هامة وبارزة من سمات التشريع الإسلامي ، توضح كيف أخذ بمبدأ التدرج والملاءمة وليس الطفرة ، وعدم أخذ الظروف والأحوال بعين الاعتبار ، أما ما حدث منه عندما حاز صفية يوم أن وقعت في الأسر من وضعه لردائه عليها فإننا نجد تفسيره في الظروف التي حدث فيها ذلك : فمن ناحية كانت المعركة التي دارت للاستيلاء على حصن القموص عنيفة بلا شك . ففي داخل الحصن أناس يتمتلون

ماحدث لبني عمومته من يهود بنى قريظة الذين كان فيهم حبي بن أخطب والد صفية ؛ ولذلك فإنه لما سقط الحصن اعتري الخوف النساء وغيرهن ممن بقى على قيد الحياة ممن كانوا فى الحصن ، وبطبيعة الحال فرت النساء فى كل اتجاه بما عليهن من ثياب معفرات متربات مشحطات الشعر فزعزعات مولولات ، وكانت صفية فى السابعة عشرة من عمرها ابنة أحد كبار زعماء اليهود . فلما سيقّت مع الأسيرات ورآها النبى صلى الله عليه وسلم أشفق عليها وعلى قريبتها ولام بلالا ؛ لأنه مر بهما على قتلاهما . وكما هو معلوم فإن إحساس من كان عزيزا بالذل والهوان يفوق إحساس غيره ؛ ولذلك قيل : ارحموا عزيز قوم ذل . وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بما فعله يفرق فى المعاملة بين الناس ، ولكنه راعى — ولا شك — ظروف الفتاة الصغيرة التى لا تحتمل ما يحتمله غيرها . هذا فضلا عن كونه أباً لبنات مثلها ، وما عرف عنه من رحمة بهن وحب لهن وحذب عليهن .

ومن ناحية أخرى فقد كان الجو يومئذ حارا ، يحتاج فيه المرء إلى ما يقيه حرارة الشمس الالهبة ، ومن يفر من خطر محقق لا يفكر إلا فى النجاة بنفسه ، فينطلق باركا وراءه كل شيء . وربما كانت الثياب التى فرت فيها صفية لا تسترها بما فيه الكفاية ، فضلا عن عدم كفايتها لوقايتها من الحر الذى يبدأ مبكرا فى الصحراء حيث توجد خيبر . وقد نبين من المقابلة بين التقويمين الهجرى والميلادى أن أول المحرم من السنة السابعة للهجرة يوافق ١١ من مايو من عام ٦٢٨ ، ومعنى ذلك أن فتح خيبر كان فى شهر يونيو ، وأنه امتد إلى شهر

اغسطس. والمرجح أن وقوع صفيه في السبي كان قرب هاية يونيو ، حيث ترتفع درجة الحرارة بشكل ملحوظ . ومما يؤيد ذلك مذكره ابن كثير ^(٢٣) عن أبي عثمان النهدي ، أو عن أبي قلابه قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم خيبر قدم والثمره خضرة . قال : فأسرع الناس إليها فحموا (أى أصيبوا بالحمى) فشكوا ذلك إليه فأمرهم أن يقرسوا الماء في الشنان ^(٢٤) ثم يجروه عليهم إذا أتى الفجر ويذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا ذلك ، فكأنما شطوا من عُقل . قال البيهقي : ورويناه عن عبدالرحمن بن رافع موصولا وعنه بين المغرب والعشاء .

فلهذا السبب - وليس لغيره - وضع الرسول صلى الله عليه وسلم رداءه على صفية . والله تعالى أعلم .

هذا هو ماحدث في خيبر ؛ معركة طويلة شرسه ، استغرقت مدة لا تقل عن شهرين ، وفعت السيدة صفية في بدايتها في أسر المسلمين ، فلما رآها الرسول صلى الله عليه وسلم أشفق عليها من أن تقع في يد من لا يقدّر ظروفها القاسية ، من حيث إنها كانت صغيرة في السن وابنة كبير وزوجة كبير أيضا من كبراء قومها ، فأراد أن نجنها مذلة السبي ، ويعوضها شرفاً بشرف أكبر ، دون أن ينظر إلى جمالها أو فتنها ، أو إلى أنها ابنة ملك لانليق إلا بملوك إلى آخر هذا

(٢٣) البدايه والنهايه ، ج٤ ، صفحه ١٩٥

(٢٤) السنان : الأسقيه الخلقه ، وهى أشد بريدا للماء من الجدد — أى أن التقديم يبرد الماء أشد مما يبرده الجديد .

اللغو الذى لانظن أنه حدث ، وإنما هو من الإضافات التى حدثت فى عهود لاحقة كان فيها الكلام عن النساء لا يخضع لقيود ولا تأخذه حدود ، وظلموا أنس بن مالك ؛ إذ أظهره فى صورته الرجل الذى يثرثر فى أمور من هذا النوع فيقول فى كل مرة كلاما مختلفا .

ولعلنا لمسنا إلى أى حد طغت هذه الحكايات على الحقيقة فى شأن غزوة المستوطنة اليهودية الحصينة فى خيبر ، والتى كان الاستيلاء عليها ضروريا للغاية ؛ لكى يفتح الطريق إلى بقية المستوطنات فى أقصى شمال الجزيرة العربية . ولا شك أن القضاء على ذلك العدد الكبير من المستوطنات اليهودية فى الحجاز هو ملحمة عظيمة يجدر بنا أن نعيد كتابتها بأسلوب جديد يفتح لشباب الأمة الإسلامية الفرصة لمعرفة التاريخ المجيد للإسلام ؛ ليكون له ذلك زادا فى حاضره ومستقبله .

المراجع

أولا - الكتب

- القرآن الكريم
- التوراة
- تفسير ابن جرير الطبري
- تفسير القرطبي
- تفسير ابن كثير
- تفسير المنار
- صحيح البخاري
- فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر الهيتمي
- صحيح مسلم
- شرح صحيح مسلم للنووي
- سنن أبي داود
- مسند الإمام أحمد بن حنبل
- جامع الترمذي
- أسد العابة في معرفة الصحابة ، ابن الأثير ، كتاب الشعب ، دار الشعب ، القاهرة ١٩٧٠
- الإصابة في تمييز الصحابه ، ابن حجر العسقلاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

- الأغاني ، للأصهباني ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٠
- إمبراطورية العرب ، جون جلوب ، تعريب خيرى جماد ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٦
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ابن رشد القرطبى ، مصطفى البانى الحلبي ، القاهرة ١٩٥٠
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨١
- تاريخ الإسلام ، السياسى والدينى والثقافى ، دكتور حسن إبراهيم ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة التاسعة ، القاهرة ١٩٧٩
- تاريخ الإسلام ، المغازى ، شمس الدين الذهبى ، دار الكتب الإسلامية ، دار الكتاب المصرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٥
- تاريخ الأمم والملوك ، ابن جرير الطبرى ، روائع التراث العربى ، بدون تاريخ
- تاريخ التمدن الإسلامى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- تاريخ الجنس العربى فى مختلف الأطوار والأدوار والأقطار ، محمد عزة دروزة ، الجزء الأول ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا — بيروت .
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، فيليب حتى ، ترجمة جورج حداد ، وعبد العظيم رائق دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ .

- التاريخ العربى وجغرافيته ، أمين مدنى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ .
- التاريخ العربى القديم ، ديتلف نيلسن ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- تخريج الدلالات السمعية ، أبو الحسن على بن محمد الخزازى التلمسانى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٨٠ .
- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والدكتور عبد المجيد عابدين ، والدكتور إسماعيل النحراوى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧١ .
- السيرة النبوية ، ابن هشام ، مصطفى البابى الحلبي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٥ .
- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، الطبعة الثانية ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ .
- العرب والإسلام والخلافة العربية ، بليانيف ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٣ .
- العرب قبل الإسلام ، دار الهلال ، القاهرة .
- فتوح البلدان ، البلاذرى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ .
- فجر الإسلام ، أحمد أمين ، الطبعة الثانية عشرة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٤ .
- القاموس الإسلامى ، أحمد عطية الله ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٣ .

- قصه الحصاره ، ول ديورات ، ترجمه محمد بدران ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٢ .
- الكامل فى التاريخ ، ابن الأنير ، دار صادر بيروت ، ١٩٨٢ .
- لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف ، القاهرة بدون تاريخ .
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن نيمية ، مكتبة ابن نيمية ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- المحلى ، ابن حزم ، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت
- مروج الذهب ، المسعودى ، الطبعة الرابعة ، المكنة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٥ .
- معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمه عبد العزيز توفيق جاويد ، الطبعة الثالثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .
- الهدايه شرح بداية المبتدى ، أبو الحسن المرعيناى ، مكتبة محمد على صبيح ، القاهرة ١٩٦٦ .
- معجم البلدان ، ياقوت الحموى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٩٧٩ .

ثانيا — دوائر المعارف والموسوعات :

- دائرة المعارف الإسلامية
- دائرة المعارف الأمريكية :
- الموسوعة العربية الميسرة
- الموسوعة الإسلامية الميسرة
- الموسوعة الثقافية

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول :	
— تاريخ المستوطنات اليهودية في الحجاز	١٩
— العبرانيون ، اليهود ، بنو اسرائيل	١٩
— علاقة العرب باليهود	٢٣
— ظهور اليهود في الجزيرة العربية	٣٥
— يغرب أو المدينة	٤٩
— مستوطنة تيماء	٦٥
— مستوطنة تبوك	٦٨
— مستوطنات أخرى في فداك ، أدرعات ، مقنا وأذرح	٦٨
الفصل الثانى :	
— كيف قضى المسلمون على المستوطنات اليهودية	٧٣
— عقد المراجعة وغزوة بنى قينقاع	٧٧

- استخدام اليهود الشعر للطعن في اعراض المسلمين ٨٥
- غزوة بنى النضير ٨٦
- غزوة بنى قريظة ١٠١
- غزوة تبوك ١١٨

الفصل الثالث :

- غزوة خيبر وزواج الرسول ﷺ من صفية بنت حى ١٢٧
- الروايات التى قيلت فى زواج الرسول ﷺ بصفية ١٣٠
- الرواية الأولى ١٣١
- الرواية الثانية ١٣٢
- الرواية الثالثة ١٣٤
- الرواية الرابعة ١٣٩
- الرواية الخامسة ١٤٢
- الرواية السادسة ١٤٥
- الرواية السابعة ١٤٦
- تحليل مضمون الروايات ١٤٩
- الدليل على وجوب الاستبراء ١٥٤
- فى القرآن الكريم
- فى السنة
- رأى الفقهاء
- فتح خيبر ١٦٥
- معنى خيبر ، وم كانت تتكون ؟ ١٦٨

- المدة التي أَسْتغْرَقَهَا فَتْحُ خَيْبَرَ ١٧٢
- مَغْزَى وَضْعِ الرَّسُولِ رِءَاةً عَلَى صَفِيَّةَ ١٧٥
- الْمُرَاجَع ١٨١

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢

الدمع التمويرى .. **غرافيكس** للتصميمات الفنية ت: ٢١٢٩١٨٤

هذا الكتاب

يقال أن التاريخ يعيد نفسه ، ويقال أيضاً أنه لاجديد تحت الشمس وهذا الكتاب يؤكد أن كلا القولين صحيح ، على الأقل بالنسبة لنا نحن العرب ، فالمستوطنات اليهودية التي أقامها اليهود في فلسطين والتي تدور بشأنها المفاوضات الآن بين العرب واليهود ، ليست بالمشكلة الجديدة ، فقد سبق لليهود أن أقاموا مثلها في الجزيرة العربية قبل الإسلام وفعلوا بأهلها الأصليين من العرب مايفعلونه الآن بالفلسطينيين .

وعندما ظهر الإسلام وهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام بها الدولة الإسلامية ، تصدى له اليهود من مستوطناتهم في قريظة والنضير وخيبر ووادي القرى ، وأخذوا يؤلبون القبائل العربية عليه ويحرضون المناققين ويطعنون في الإسلام ويكيدون للمسلمين فماذا فعل الرسول معهم ؟ هل صدق تهديداتهم وخافهم أم حاربهم إلى أن أجلاهم وطهر البلاد منهم .

هذا هو الموضوع الذي يتناوله هذا الكتاب .

الناشر



١٦ شارع عبد الحفيظ زويت - فاكس ٢٦٦٢٥٢٥ ٢٦٦٩٧١٢
طاشانه • سمسار • مسود و مسيح
لاكم ٢٦٩١٦٦٨ مرقا فار خاير حريت ٦٠٢٢ القلم

AL-DAR AL-MASHRIQ AL-LUNNANIAN PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION
AL-DAR AL-MASHRIQ AL-LUNNANIAN PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION